

قضايا إسلامية

سلسلة تصدر

مرة كل شهر عربي

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

فتنة التكفير

بين

الشيعة .. والوهابية .. والصوفية

أ.د. محمد عمارة

القاهرة

ذو الحجة ١٤٢٧هـ - ديسمبر ٢٠٠٦م

العدد (١٤٢)

قضايا إسلامية

سلسلة تصدر

مرة كل شهر عربى

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

فتنة التكفير

بين

الشيعة .. والوهابية .. والصوفية

أ.د. محمد عمارة

العدد (١٤٢)

القاهرة

ذو الحجة ١٤٢٧ هـ - ديسمبر ٢٠٠٦ م

يشرف على إصدارها

الدكتور/ محمود حمدي زقزوق

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور/ عبدالصبور مرزوق

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية





كلمات

* يقول الله سبحانه وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فأنس الله صفات كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » (١) .

* ويقول الإمام القرطبي (٦٧١هـ / ١٢٧٣م) في تفسير هذه الآية الكريمة : " إن في هذا التوجيه الإلهي من الفقه باب عظيم ، وهو أن الأحكام تُنَاط بالمظان والظواهر ، لا على القطع وإطلاع السرائر ، فإله لم يجعل لعباده غير الحكم بالظاهر " (٢) .

* وعن أسامة بن زيد - رضى الله عنه - قال : " بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصَبَحْنَا الخُرَقَات (مكان) من جهينة ، فأدركت رجلاً ، فقال : لا إله إلا الله ، فطمعته . فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنبي ﷺ فقال : " أقال لا إله إلا الله ، وقتلته " ؟ !
قال ، قلت : يا رسول الله ، إنما قالها خوفاً من السلاح .

(١) النساء : ٩٤ .

(٢) (الجامع لأحكام القرآن) ج ٥ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، طبعة دار الكتب المصرية .

قال ﷺ : [أفلا شققت عن قلبه لتعلم أقالها أم لا ؟ !] ... فما زال يكررها حتى تغنيت أني أسلمت يومئذ [(١)] .

* وفي شرح هذا الحديث ، يقول الإمام النووي (٦٣١ ، ٦٧٦ هـ / ١٢٣٣ ، ١٢٧٧ م) : " إنما كُلفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه " .

* ويقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ ، ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ ، ١١١١ م) : " إنه لا يسارع إلى التكفير إلا الجيلة .. وينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلا ، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة ، المصرحين بقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خطأ والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم " (٢) .

* ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ، ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ ، ١٩٠٥ م) : " إن الله لم يجعل للخليفة .. ولا القاضي .. ولا للمفتي .. ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام .. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه ، أو يفتازعه طريق نظره ..

(١) رواه مسلم ، وأبو داود ، وابن ماجة ، والإمام أحمد .

(٢) (الاقتصاد في الاعتقاد) ، ص ١٤٣ ، طبعة مكتبة صبيح ، ضمن مجموعة .
القاهرة بدون تاريخ .

فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعدة الحسنة ،
والدعوة إلى الخير والتنفيز عن الشر ، وهي سلطة خولها الله لأدنى
المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من
أدناهم ..

وليس لمسلم ، مهما علا كعبه في الإسلام ، على آخر ، مهما
انحطت منزلته فيه ، إلا حق النصيحة والإرشاد ..

ولقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا
صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ، ويحتمل الإيمان من
وجه واحد ، حمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر .. (١) .

هكذا أعلن الإسلام — من خلال " البلاغ القرآني " .. و " البيان
النبوي " للبلاغ القرآني .. ومن خلال الفكر الإسلامي — ضرورة صيانة
الإيمان عن " التكفير العيبي " و " عبث التكفيريين " .

المؤلف

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٣ ، ص ٢٨٣ — ٢٨٩ ، دراسة
وتحقيق : د . محمد عمارة ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

تمهيد

على النطاق العالمى ، وفى مختلف القارات ، تتوجه الأمم والشعوب إلى التقارب والتضامن والاتحاد .. وذلك انطلاقاً من الضرورات الحياتية لهذه الأمم والشعوب ، واستجابة للحاجات المادية التى تستلزم تكامل الإمكانيات والثروات ومشروعات التنمية .. ولمواجهة التحديات - الداخلية والخارجية - التى تواجه هذه الأمم والشعوب ، إن فى مجالات " الأمن " أو فى مجالات " الاقتصاد " ..

وإذا كانت هذه الضرورات والحاجيات المادية والدينية " هى التى تدفع هذه الأمم والشعوب إلى التقارب والتضامن والتساند والاتحاد ، رغم ما بينها من اختلافات وتباينات دينية وثقافية ولغوية وقومية .. بل ورغم ما فى تاريخها - البعيد والقريب - من حروب وصراعات .. فإن الحال مع شعوب الأمة الإسلامية - فى ضوء هذه " الظاهرة العالمية " يدعو إلى الأسى والاستغراب ! ..

* فالمسلمون أمة واحدة .. قرر ذلك قرآنهم الكريم ، الذى هو البلاغ الإلهى الذى يحفظونه ، ويقدمونه .. وهم يتلونه فى صلواتهم أثناء الليل وأطراف النهار يقول الله سبحانه وتعالى : إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

وأنا ربكم فاعبدون ﴿١﴾ . ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ (٢) .

ووحدة هذه الأمة ، وما تنمرها من ألفة والتلافى هي " إرادة إلهية " و " صناعة ربانية " . . . وليست مجرد " نزوع بشري دنيوي " . . . ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بتصرده وبالمؤمنين * وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ (٣) .

* وتاريخ هذه الأمة الإسلامية شاهد صدق ، يعلن بكل أسنة الحال والمقال أن وحدتها هي التي جعلتها — حتى عندما كانت فئة قليلة — تزيل " القوى العظمى " التي قهرت الشرق ونهبت لأكثر من عشرة قرون — قوى الفرس والروم — وتفتح فى ثمانين عاما أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون ! . . . وتبنى الحضارة الوسطية المتوازنة التي أنارت الدنيا وعلمت الشعوب ، وجعلت المسلمين العالم الأول على ظهر هذا الكوكب لأكثر من عشرة قرون ! .

* وهذه الوحدة ، هي ذاتها التي مكنت هذه الأمة من قهر التتار — الذين دوخوا الشعوب وأبادوا العسرا — وقهروا الصليبيين الذين مثلت

(١) الأنبياء : ٩٢ .

(٢) المؤمنون : ٥٢ .

(٣) الأنفال : ٦٣، ٦٢ .

حاصلهم التدميرىة الاستيطانية أولى الحروب العالمىة التى استمرت
قرنين من الزمان (٤٨٩ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١ م) ..

* ومع الفريضة الإلبيية .. ومع شهادة التاريخ .. فى واقع هذه الأمة
الإسلامىة يصرخ بأعلى الأصوات ..

إن تمزق هذه الأمة ، وغىبة التضامن والتساند والتكامل والاتحاد عن
شعوبها وأوطانها هو الذى مكن ويمكن منها الأعداء وشذاذ الأفاق !
فترواتها منهوبة .. وأرضها تزرع تحت نير القواعد العسكرية
الأجنبية .. وبحارها ومحيطاتها تشرح وتمرح فيها الأساطيل المعادية ..

وبذا كان الله سبحانه وتعالى قد علمنا فى قرآنه الكريم أن " التداول
سنة من سنن الله فى الاجتماع الإنسانى ، وغير تاريخ الأمم والحضارات
» .. وتلك الأيام تداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم
شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويحقق
الكافرين » (١) . « وإن تتونسوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا
أمثالكم » (٢) .

وبذا كان رسول الله ﷺ قد علمنا أن هذا " التداول " هو الذى يجعل
خط سير التاريخ يأخذ شكل " الدورات " .. فكما يتم التداول بين الليل
والنهار ، كذلك يتم التداول بين العدل والجور .. وبين الصعود والهبوط ..

(١) آل عمران : ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) محمد : ٣٨ .

وبين التقدم والتخلف .. وبين النهوض والانحطاط .. وصلى رسول الله ﷺ إذ يقول : [لا يلبث الجور بعدى إلا قليلاً حتى يطلع ، فكما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره ، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل ، فكما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله ، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره] (١) .

إذا كان الحال كذلك .. وإذا كان الرسول ﷺ قد علمنا أن " الخير في وفي أمي إلى يوم القيامة " .. وأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة [لا تجتمع أمي على ضلالة] (٢) .

فلن على أولى العزم والهمة من العلماء والمفكرين المرطين على شعور الإسلام أن يجهلوا في سبيل توحيد أمة الإسلام ، لتكامل أوطان دار الإسلام ، ولتتميز أرضنا ومناخنا وثرواتنا ومقدراتنا ومقدراتنا ، ولتبقى أمتنا من يتشرب إلى هويتنا ، ويمتصون كامل الولاء لهذا الدين ، الذي جمع المؤمنين به على هذه الجوامع الخمسة :

- ١- وحدة العقيدة .
- ٢- وحدة الشريعة .
- ٣- وحدة الحضارة .
- ٤- وحدة الأمة .
- ٥- وحدة دار الإسلام .

(١) رواه الإمام أحمد

(٢) رواه الدارمي

وإذا كانت " التعددية " وكان التمايز والاختلاف - في إطار وحدة هذه الجوامع الخمسة - هي " نعمة " من نعم الله التي جاء بها الإسلام .. فإن " النعمة " إنما تتحدد في الخلاف الذي يجعل بأسر المسلمين يتشيع شيئا .. وفي مقدمة أسباب هذه " النعمة " " نزعة التكفير " التي تقسم وحدة الأمة ، وتكسب العربي والوثناني التي ألف بها الإسلام بين قلوب المسلمين ..

لقد رسم القرآن الكريم صورة هذه الأمة ، كما أرادها الله سبحانه وتعالى عندما قال : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ (١) .

أما إذا شاعت " نزعة التكفير " بين مذاهب الأمة وخرقوا وتجاوزاتها .. فإن الباب سينفتح واسعا أمام الاختلافات المعادية التي تتجدد أكبر حجمها هذه الأيام في العديد من بلاد الإسلام .. بل سيصبح فرقاء من هذه الأمة أشداء على أمتهم رحماء على أعدائهم .. ومتحالفين مع هؤلاء الأعداء !! .

إن " سفينة " الأمة الإسلامية تتأوشح الأمواج العاصفة في محيط عالمي أعطت القرعونية والقارونية الغربية فيه الحسرة الصليبية على الإسلام وأمتة وحضارته وعالمه ..

وإن مذاهب هذه الأمة الإسلامية هي " الألواح " المكونة لهذه " السفينة " .. فهي لنات عقل الأمة وجدانها ، المعركة لعامتها وجمهورها ..

(١) الفتح : ٢٩

وصدق رسول الله ﷺ إذ بعثنا منهاج الحفاظ على " سفينة الأمة " فيقول [مثل القانم على حدود الله والمدمن فيها كمثل قوم استهموا فسى سفينة في البحر ، فأصاب بعضهم أسفلها وأصاب بعضهم أعلاها ، فكان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء فيصبون على الذين في أعلاها فقال الذين في أعلاها : لا تدعكم تصعدون فتؤذوننا ، فقال الذين في أسفلها : فإننا نلقبها من أسفلها فنستقى . قال : [أي الرسول ﷺ] : فإن أخذوا على أيديهم فمنعوههم نجوا جميعا ، وإن تركوهم غرقوا جميعا] (١) .

وهكذا يصنع " التكفير " عندما يخرق وحدة الأمة ، ويفكك مكونات " سفينتها " بينما تتناوشها الأمواج والعمى صبغ في محيط قد أعلنت قسواء الكبرى الحرب الضروس على الإسلام والمسلمين .. وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا (٢) .

تذكر .. وتعالج هذه التركة السخيرية — نزعة التكفير لأهل القبلة — ولمواجهة هذه الفتنة التي كانت قابضة في بطون بعض الكتب المذهبية .. وفي عقول بعض الذين يرتفون من التعصب المذهبي — والتي أشاع الإعلام المعاصر بشرة الاتصالات — فاجتثها بين العامة والجمهور .

(١) رواه البخاري والترمذي والإمام أحمد .

(٢) الكيف : ٧٩٠ .

ولمعالجة هذه " النزعة " .. وهذه " الفئنة " يجب أن يتداعى العلماء
والمفكرون المربطون على شعور وحدة الإسلام وأمنته وحضارته ..
وفي سبيل ذلك يصدر هذا الكتاب ، الذى نسأل الله سبحانه
وتعالى : أن يتقبله خالصا لوجهه .. وأن ينفع به .. إنه — سبحانه أفضل
مستول وأكرم مجيب ..

حتى يكون التقريب حقيقةً

في الحديث عن التقريب بين المذاهب الإسلامية ، هناك خلط بين المفاهيم المرادة من وراء المصطلحات التي يستخدمها الباحثون في هذا الميدان .. "فالتقريب " بين المذاهب غير " التوحيد " للمذاهب .. وكلاهما متميز عن " احتضان " جميع المذاهب والاستفادة من الملائم فمسي أحاسنها واجتهادات مجتديها .

ثم إن " المذاهب " قد يراد بها " المذاهب الفقهية " .. وقد يراد بها " المذاهب الكلامية " لذلك ، لابد من البدء بتحديد وتحرير مضامين ومفاهيم كل مصطلح من هذه المصطلحات ..

* "فالتقريب " : هو الانطلاق من تمايز المذاهب المتعددة والمختلفة ، والحفاظ على تمايزها واختلافها ، مع العزول عن نقي مذهب للمذاهب الأخرى ، بالتعصب لمذهب واحد ، ورفض ما عداه .. قيو - التقريب - تعاليف بين المذاهب المختلفة ، مع اكتشاف الإطار العام الجامع لها ، وسنطاق الاتفاق بينها ، وتحديد مناطق التمايز والاختلاف .

* أما " التوحيد " بين المذاهب : فإنه يعني دمجها جميعاً في مذهب واحد ، وفق قاعدة التعدد والتمايز والاختلاف ..

* وبين هذين المصطلحين يأتي " الاحتضان " والاستفادة من المذاهب المختلفة والتمايزة ، باعتبارها اجتهادات إسلامية في إطار علم

واحد وحضارة واحدة ودين واحد ، والنظر إلى الأحكام التي أثمرتها الاجتهادات المذهبية المختلفة باعتبارها التراث الواحد للأمة الواحدة ، ومن ثم الاستفادة بالعلائم منها ، الذي يلبي حاجات تحقيق المصالح والضرورات المتجددة بحكم تمايز الزمان والمكان وتنوع العادات والتقاليد والأعراف .. أي توسيع دائرة الترجيح بين الأحكام والاجتهادات من نطاق المذهب الواحد إلى جملة المذاهب كلها ومفهوم " الاحتضان " هذا من الممكن أن يكون ثمرة من ثمرات " التقريب " ..

* أما مصطلح " المذاهب " ، فإنه يطلق على المذاهب الفقهية ، التي هي علم الفروع واجتهادات الفقهاء في إطار الشريعة الإسلامية الواحدة التي هي وضع إلهي ثابت عبر الزمان والمكان .. وقد يطلق هذا المصطلح " المذاهب " على المذاهب الكلامية ، أي التصورات والاجتهادات التي أبدعها علماء أصول الدين في إطار العقائد الإسلامية ، وخاصة " الأكوهية " وصفات " الذات الإلهية " .. و " النبوات والرمالات " وما يتعلق بها من المعجزات .. و " فلسفة العلاقة بين الحق والخلق " ، وما يتعلق بها من مكانة الإنسان في الكون ، وأفعال هذا الإنسان .. إلخ .. هذا عن ضغوط مفاهيم ومضامين مصطلحات هذا البحث من سياحت الفكر الإسلامي .

أما عن التاريخ الحديث للجهود والدعوات التي بذلت وقامت لتقريب بين المذاهب الفقهية الإسلامية بهدف الخروج من التعصب لواء منها ضد ما عداه ، والاستفادة من كل الاجتهادات فيها ، لتلبية احتياجات التشريع

للمستجدات العصرية ، ففعل دعوة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٥ هـ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) في التقرير الذي كتبه لإصلاح القضاء الشرعي - أن تكون أبرز هذه الدعوات في عصرنا الحديث .
 لاحتضان كل مذاهب الفقه الإسلامي ، والاستفادة من اجتهاداتها في القضاء والتقنين الحديث لفقه الشريعة الإسلامية .. فلقد كانت الدولة العثمانية (٦٦٩ - ١٣٤٢ هـ / ١٢٧٠ - ١٩٢٢ م) تلتزم المذهب الحنفي وحده . وبفقيه وحده يحكم القضاء ويفتي المفتون فسي ولاياتها ، رغم تمذهب الناس فيها بالمذاهب السنية الأربعة : - الحنفي .. والمالكي .. والشافعي .. والحنبلي .. وللمذهب الحنفي وحده تم التقنين في " مجلة الأحكام العدلية " سنة ١٢٨٦ هـ ، سنة ١٨٦٩ م .. فلما درس الإمام محمد عبده حال القضاء الشرعي بمصر ، دعا في التقرير الذي كتبه - في نوفمبر سنة ١٨٩٩ م - إلى إصلاح حال هذا القضاء وفقهه .. ودعا إلى احتضان كل المذاهب الفقهية والاستفادة من اجتهادات جميع مجتهداتها ، لما في ذلك من فتح باب الاجتهاد بالترجيح بين الأحكام جميعها ، والتيسير على الناس ، وتلبية حاجات المستجدات ^(١) .

ولقد كانت حركة التقنين للفقه الإسلامي بمصر ، في مقدمة الحركات التي وضعت دعوة الإمام محمد عبده في الممارسة والتطبيق .. ففي التعديلات التي أدخلت على بعض مواد قوانين الأسرة - الأحوال الشخصية - تمت الاستفادة من المذاهب الفقهية المختلفة ، بما في ذلك

(١) (الأعمال الكاملة) ج ٢ ، ص ٢٠٩ - ٢٨٨ .

المذهب الجعفري — الشيعة الإثني عشرية — والمذهب الزيدي — الشيعة الزيدية ..

ولما قامت مصر بإصدار موسوعة الفقه الإسلامي — موسوعة جمال عبد الناصر — اعتمدت كل المذاهب الفقهية الموثقة مصادرها ، واحتضنت أحكامها واجتهادات مجتهديها جميعاً — وهي المذاهب السنية الأربعة .. مع المذهب الجعفري ، والمذهب الزيدي ، والمذهب الإباضي ، والمذهب الظاهري .. فكانت "لفقه المصري" — إذا جاز التعبير — الريادة في إنتاج هذا الطريق ، الذي لا يكتفى ، فقط ، "بالتقريب" بين المذاهب الفقهية ، أي رفض التعصب لمذهب واحد ضد ما عداه ، وإنما تجاوز "الموقف المصري" هذا "التقريب" إلى "احتضان" كل المذاهب ، والعمل على الاستفادة من الملائم المبنى لاحتياجات الأمة ومستجدات العصر من اجتهادات المذاهب الفقهية جميعاً ..

وفي أربعينيات القرن العشرين ، قامت في مصر "جماعة التقريب بين المذاهب" مركزة جهودها على مذاهب السنة والشيعة الإمامية بوجه خاص ..

ولقد رأس هذه الجماعة الزعيم المصلح محمد علي عطية باشا (١٢٩٢ — ١٣٧٥ هـ / ١٨٧٥ — ١٩٥٦ م) .. وكان في مقدمة مؤسسيها والعاملين في ميدان جهودها الفقهية والفكرية الأئمة والعلماء الأصلاء : الشيخ عبد المجيد سليم (١٢٩٩ — ١٣٧٤ هـ) والشيخ محمد مصطفى المراغي (١٢٩٨ — ١٣٦٤ هـ / ١٨٨١ — ١٩٤٥ م) والشيخ

محسنى عبد الرزاق (١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ / ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م)
 والشيخ محمود شلتوت (١٣١٠ - ١٣٨٣ هـ / ١٨٩٣ - ١٩٦٣ م)
 والشيخ محمد المنفى (١٢٢٥ - ١٣٨٨ هـ / ١٩٠٧ - ١٩٦٨ م)
 والشيخ على الخفيف (١٣٠٨ - ١٣٩٨ هـ / ١٨٩١ - ١٩٧٨ م)
 والشيخ عبد العزيز عيسى (١٣٢٧ - ١٤١٥ هـ / ١٩٠٩ - ١٩٩٤ م)
 والشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ / ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م) والشيخ
 سيد سابق .. وغيرهم من أئمة علماء السنة .

كما ضمت هذه اللجنة - فى إطار ' دار التقريب ' - كوكبة من
 كبار علماء الشيعة الأئمة عشرية .. من مثل آية الله أفاحسين البروجردى
 .. والسيد محمد باقر الدين القمي - الذى تولى الأمانة العامة للجماعة -
 والسيد محمد الحسنى آل كاشف الغطاء . والسيد شرف الدين الموسوى ..
 والسيد محمد جواد مغنبة . والسيد صدر الدين شرف الدين .. وغيرهم .
 وكانت مجلة ' رسالة الإسلام ' لسان حال هذه الجماعة ، من أبرز
 المنابر الفكرية التى توسعت فيها الجهود التى بذلت فى هذا اللون من
 التقريب بين المذاهب الإسلامية .. وفى إزالة التبعيات والعقبات من مياادين
 العلاقة بين السنة والشيعة على وجه الخصوص ..
 كذلك كانت جهود الشيخ محمود شلتوت من أبرز ما تمخضت عنه
 اجتهادات هذا اللون من التقريب بين المذاهب الفقهية .. فلقد كتب عن
 مقاصد هذه الدعوة ، وجهود هذه الجماعة فقال :

" إن دعوة التقريب هى دعوة التوحيد والوحدة ، هى دعوة السلام
 والإسلام .. كنت أود أن أستطيع تصوير فكرة الحرية المذهبية الصحيحة

المستقيمة على نهج الإسلام ، والتي كان عليها الأمة الأعلام في تاريخنا
الفقهى ، أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة ، ويرأسون
بين الله وشريعته عن الجمود والخمول ، فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق
الذى لا ريب فيه ، وأن على سائر الناس أن يتبعوه . ولكن يقول : هذا
مذهبي ، وما وصل إليه جهدي وعلمي . ولست أبيع لأحد تقليدي
واتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ما قلت . فإن الدليل إذا استقام
فهو عمدي ، والحديث إذا صح فهو مذهبي .

“ ولقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم ، وأسهمت منذ أول يوم
في جماعتها ، وفي وجود نشاط دارها بأمور كثيرة ، ثم تهيأ لى بعد
ذلك . وقد عهد إلي بمصعب ميثقة الأثر . أن أصدرت فتاوى في جوار
التعب على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول ، المعروفة المصادر ،
المتبعة لسبيل المؤمنين ، ومنها مذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية .
وقرت بهذه الفتوى عيون المؤمنين المخلصين الذين لا هدف لهم
إلا الحق والألفة ومصلحة الأمة . وظلت تتوارد الأسئلة والمشاورات
والمجادلات في شأنها وأنا مؤمن بصحتها ، ثابت على رثها . وأويدها
في الحين بعد الحين فيما أبعث به من رسائل إلى المتوضحين . أو أرد به
على شبه المعترضين ، وفيما أثنى من مقال ينشر أو حديث يذاع أو
بيان أدعو به إلى الوحدة والتماسك والاتفاق حول أصول الإسلام .
ونسوان الضمآن والأحقاد ، حتى أصبحت - والحمد لله - حقيقة مقسرة
تجرى بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة ، بعد أن كان المرجفون في

مختلف عهود الضعف الفكرى والخلاف الطائفى والنزاع السياسى ،
 يثيرون فى موضعها الشكوك والأوهام بالباطل ، وما هو ذا الأثر
 الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب
 المختلفة ، فيقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية سنونها وشيعتها ،
 دراسة تعتمد على الدليل والبرهان ، وتخلص من التعصب لفلان
 وفلان " (١) .

لقد سئل الشيخ محمود شلتوت ... وهو الإمام الأكبر شيخ الأزهر :
 ' إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكل تقع
 عبادته ومعاملاته على وجه صحيح ، أن يقلد أحد المذاهب الأربعة
 السريعة ، وليس من بينها مذهب الشيعة ، فهل توافقون فضيلتكم على هذا
 الرأى على إطلاقه فيمنعون تقليد مذهب الشيعة الإثنا عشرية مثلاً ؟ ' .
 فكان جواب الشيخ شلتوت على هذا السؤال :

' إن الإسلام لا يوجب على أحد اتباع مذهب معين ، بل نقول : إن
 لكل مسلم الحق فى أن يقلد يداى ذى بدء أى مذهب من المذاهب المنقولة
 نقلاً صحيحاً ، والمدونة أحكامها فى كتبها الخاصة ، وللمن قلده مذهباً من
 هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره - أى مذهب كان - ولا حرج عليه فى
 شئ .

(١) على عبد العظيم (شعبة الأزهر) ج ٢ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ ، طبعة القاهرة سنة
 ١٣٩٩ هـ ، سنة ١٩٧٩ م .

إن مذهب الجعفرية ، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية ، مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة ، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك ، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة ، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب ، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى ، يجوز - لمن ليس أهلاً للنظر والاجتهاد - تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم ، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات ^(١) .

ذلك هو نص فتوى الشيخ شلتوت في التقريب بين المذاهب الفقهية .. وفي جواز التعبد والتعامل وفق أحكامها جميعاً دون تعصب لمذهب ضد ما عداه .. وجواز التعبد والتعامل - من قبل أهل السنة - وفق فقه المذهب الجعفرى للشيعة الإمامية الإثنا عشرية على وجه التحديد .. ورغم أن هذه الفتوى قد وجدت صدى عظيمًا وواسعًا ومستمرًا في الدوائر الشيعية ، ورفعت من مقام الشيخ شلتوت في هذه الدوائر ، حتى لقد تم الاحتفال به وبأية الله البروجردى - في طهران سنة ٢٠٠١ م - ولقد ترجم علماء الشيعة فتواه هذه إلى مختلف اللغات .. إلا أنه لم تصدر فتوى مناظرة لها من أى مرجع من مراجع الشيعة ، ولم يفت واحد من هؤلاء العلماء الأعلام بجواز تعبد وتعامل المسلم الشيعى وفق فقه المذاهب الفقهية السنية ، حتى يكون التقريب متبادلاً بين الأطراف المتعددة ، وليس من طرف واحد لحساب الطرف الثانى ..!

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .

بل إن دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية الصادر بعد الثورة الإسلامية - قد ذهب إلى الحد الذي جعل المذهب الجعفرى وحده هو مذهب الدولة ، ونص على أن المادة التى تقرر ذلك لا يجوز تغييرها فيما يطرأ على مواد هذا الدستور من تغييرات ! .. الأمر الذى يجعل قضية التقريب بين المذاهب الفقهية قائمة على ساق واحدة . ومن طرف واحد حتى كتابة هذه السطور ! ..

وإذا كانت لنا من ملاحظات على هذه الجهود العلمية العظيمة التى بذلتها جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، والتى أثمرت ثمرات طيبة فى ميدان التقريب بين السنة والشيعة - وهى الجهود التى يحاول مواصلةها قدر الإمكان - وعلى نحو من الأنحاء " المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب " - بطهران - فإن هذه الملاحظات يمكن إجمالها فى هذه النقاط :

أولاً : إن توجيه جهود التقريب بين المذاهب الإسلامية إلى التقريب بين المذاهب الفقهية ، هو جاهد فى غير الميدان الحقيقى الأولى بالجهاد .. أو - على أحسن الفروض - هو جهاد فى الميدان الأسيل ، الذى لا يمثل المشكلة الحقيقية فى الخلافات بين المذاهب الإسلامية .. وبين السنة والشيعة على وجه التحديد - فالفقه هو علم الفروع .. وكلما زاد الاجتهاد والتجديد فى الفقه الإسلامى كلما تمايزت الاجتهادات فى الأحكام الفقهية .. فتتسع الأفاق أمام تمايزات الاجتهادات هو الذى يحرك العقل الإسلامى المستند ،

وليس التقريب — فضلاً عن التوحيد لهذه الاجتهادات — فقط نريد احتضان
الاجتهادات المذهبية والفقهية المتنوعة ، والاستفادة بالعلماء من أحكامها
للتيسير على الناس ، ولمواكبة المستجدات ..

وثانياً : إن الفقه هو علم الفروع .. وتمايز الاجتهاد فيه واختلاف
المجتهدين في أحكامه لم يكن في يوم من الأيام يمثل مشكلة لوحدة
الأمة ، بل كان مصدراً غنياً وثراءاً للعقل الفقهي والواقع الإسلامي على
السواء .. وفي الفقه كان الأئمة والعلماء ، والمختلفون في المذاهب ، يتلذذ
الواحد منهم على من يخالفه في المذهب .. بل ورأينا في تراثنا من العلماء
الأعلام من يجمع المذاهب المتعددة في فقهه وعقائده ، فيفتي وفق مذهب ،
ويقضى وفق مذهب ثان . ويُدرس كل المذاهب لطلاب علمه ومريديه ! .
فاختلاف المذاهب الفقهية هو ظاهرة صحية في الفكر الإسلامي ،
وهو مصدر من مصادر الغنى والثراء لهذا الفقه ، ولا يمثل أية مشكلة
لوحدة أمة الإسلام .. ومن ثم ، فليس هو الميدان الحقيقي والأولى للجهاد
الفكري في التقريب بين مذاهب المسلمين ..

وثالثاً : إن الميدان الذي كان ولا يزال يمثل مشكلة لوحدة الأمة
— التي هي فريضة إلهية وتكليف قرآني — هو ميدان بعض الاجتهادات
المذهبية في المذاهب انكلامية الإسلامية .. وعلى وجه التحديد أحكام
" التكفير " و " النفي " التي نجدتها في ثمرات هذه المذاهب والتي
ارتبطت بقضية الإمامة على سبيل الحصر والتحديد ..

إن اختلاف مذاهب الفقه — السنية والشيعة — حول "نكاح المتعة" مثلا ، لا يمثل مشكلة تقسم وحدة الأمة الإسلامية .. لكن الاجتهادات التي تكفر الصحابة الذين أخرجوا خلافة علي بن أبي طالب هي التي تهدد وحدة الأمة منذ عصر الخلافة وحتى هذه اللحظات ..

ومثلها الاجتهادات التي تكفر الشيعة في بعض كتب التراث السني ، كما هو الحال عند شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ — ٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ — ١٣٢٨ م) وبعض الأئمة " السلفيين " ويضاف إلى هذه المسائل بعض الآراء التي توهم التجسيم والتشبيه للذات الإلهية .. وبعض المواقف الحادة في ميدان التصوف والصوفيّين .

فالتفريب بين المذاهب ، والذي يمثل الميدان الحقيقي للجهاد الفكري المطلوب ، هو الذي يوحد الأمة في الأصول والثوابت ، وفي أمهات العقائد والمسائل الفكرية .. وهذا هو ميدان علم الكلام .. والجهاد التقريبي — الغائب والمطلوب — هو نزاع " الألفام الفكرية — التكفيرية " التي تقسم وحدة الأمة بالتكفير لفريق من الفرقاء أو مذهب من المذاهب ، لأن التكفير هو نفي الآخر ، يقسم وحدة الأمة .. وهو خطير لا علاقة له بالفقه ، الذي هو علم الفروع ، ولا بالاجتهادات والاختلافات الفقهية ، التي هي ظاهرة صحية ، تثمر الغنى والثراء في الأحكام ، والسير والسعة للأمة كلها في تطبيق هذه الأحكام ..

* وإذا كانت هذه " الألفام الفكرية — التكفيرية " ، التي تتغذى بها وعليها عقول قطاعات من العلماء في بعض الجولات العلمية ، وفي بعض

الدوائر الفكرية السنية .. كما تتغذى عليها نزعات التعصب عند العامة ..
إذا كانت هذه " الألغام " قد غدت راسخة ، بل و " متكلسة " .. فإن
الموقف الممكن والعملی إزاءها يمكن تصوّره فيما يلي :

١- تحديد نطاق هذه " الألغام الفكرية التكفيرية " وأغلبها - لحسن
الحظ - تابع من نقل القضايا الخلافية من نطاق " الفروع " إلى نطاق
" أصول الاعتقاد " ، وتحويلها - من ثم - إلى عوامل " نفي .. وتكفير " .
للمخالفين ..

٢- اعتماد منهاج وسنة التدرج في تطبيق خطوة إزالة هذه
الآلغام الفكرية - التكفيرية " من الكتب التراثية ، وخاصة الذي يدرس
منها في الحوزات العلمية والجامعات الإسلامية ، وذلك بحذفها من
الطبعات الجديدة لكتب التراث هذه .. وفق المنهاج المتعارف عليه في
تهذيب " كتب التراث ..

٣- الاتفاق : في إطار حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية على
منع تدريس هذه " الاجتهادات التكفيرية " في الحوزات والجامعات
الإسلامية التي تكون عقول العلماء في مختلف بلاد الإسلام ولنا في منهاج
الأزهر الشريف النموذج والقُدوة في هذا الميدان ، فهو يحتضن كل مذاهب
الأمة - الفقهية والكلامية - خلفها وخلفها على حد سواء ، مع استبعاد
التكفير والنسقيق لأي مذهب من المذاهب أو فرقة من الفرق الإسلامية ،
حفاظاً على وحدة الأمة ، التي هي فريضة إلهية ، تعلو فسوق اجتهادات
المجتهدين ومذاهب المتمذهبين ..

وصدق الله العظيم في قوله : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ۖ ﴾ (١) .

ذلك هو الميدان الحقيقي للجهاد الفكري في التقريب بين المذاهب الإسلامية .. إنه علم الكلام .. علم الأصول في الاعتقاد .. وليس علم الفقه والمذاهب الفقهية ، التي تتخصص في الفروع ، واختلافاتها رحمة واسعة ولا تُفسد الود بين المسلمين ..

(١) الأنبياء : ٩٢ .

مقال فى التحذير من التكفير

لأهل السنة والجماعة - الذين يمثلون ٩٠% من المسلمين - موقف واضح وحاسم وثابت فى رفض التكفير لمن يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ما دام قائماً بحقوق هذه الشهادة ، التى هى شعار الإسلام .. العاصمة للدماء والأموال والحقوق .

وعن هذا الموقف الواضح والحاسم والتاب بعسير حجة الإسلام أبو حامد الغزالى ، فيقول : واعلم أن حقيقة الكفر والإيمان وحدّهما ، والحق والضلال ومزجّهما ، لا ينجلي للقلوب المدنسة بطلب المال والجسار وحبهما . بل إنما ينكشف ذلك لقلوب طهرت عن وسخ أو ضار الدنيا أولاً ، ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانياً ، ثم نورت بالذكر الصافي ثالثاً ، ثم غذيت بالفكر الصائب رابعاً ، ثم زينت بملازمة حدود الشرع خامساً . حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة ، وصارت كأنها مرآة منجّودة . وصار مصباح الإيمان فى زجاجة قلبي مشرق الأنوار ، يكاد زيتته يضىء ولو لم تمسه نار .

وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم ، ومعبودهم سلاطينهم ، وقبائلهم دراهمهم ودينارهم ، وشريعتهم رعونتهم . وإرادتهم جاههم وشهواتهم ، وعبادتهم خدمتهم أغنياءهم ، وذكرهم

وساوسهم ، وكزهم سواوسهم ، وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه
حشمتهم ؟ .

فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان ؟ أبالهام
إلهي ولم يفرغوا القنوب من كدورات الدنيا لقبولها ؟ أم بكمال عظمي ،
وإنما بضاعتهم في العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وأمثالهما ؟
هيهات هيهات : هذا المطلب أنفس وأعز من أن يترك بالمتى ، أو
ينال بالهوي ، فاشتغل أنت بشأنك ، ولا تضيع فيهم بقية زمانك
« فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » ذلك مبلغهم
من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن
اهتدى (١) .

.. ولعلك إن أنصفت علمت أن من جعل الحق وقفاً على واحد من
النظار يعينه فهو إلى الكفر والتناقض أقرب .

أما الكفر ، فلائه نزله منزلة النبي المعصوم من الزلل ، الذي
لا يثبت الإيمان إلا بموافقته ، ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته .
وأما التناقض ، فهو أن كل واحد من النظار يوجب النظر ، وأن
لا ترى في نظرك إلا ما رأيت ، وكل ما رأيت حجة ، وأي فرق بين من

هبة

(١) مجلة الإسلام ، أبو حامد الغزالي ، (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ، ص ٢٠٠
طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ ، سنة ١٩٠٧ م ، والأيتان من سورة النجم : ٣٠-٢٩ .

يقول : قلّدي في مجرد مذهبي ، وبين من يقول : قلّدي في مذهبي
ودليلي جميعا ؟ وهل هذا إلا التناقض ؟

8 12 43

١٠ (و) لعلك تشتهي أن تعرف حد الكفر بعد أن تتناقض عليك حدود
أصناف المقلدين ، فاعلم أن شرح ذلك طويل ، ومذكره غامض ، ولعلني
أعطيك علامة صحيحة فطردها وتعكسها لتتخذها مطمح نظرك وترعوى
بسببها عن تكفير الفرق وتطويل اللسان في أهل الإسلام وإن اختلفت
طرقهم ، ما داموا متمسكين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ،
صادقين بها ، غير منافقين لها ، فأقول :

الكفر : هو تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام في شيء مما جاء به .

والإيمان : تصديقه في جميع ما جاء به .

(Handwritten signature)

[illegible]

هذه المعاني ، ويزعم أن ما قاله الرسول ﷺ لا معنى له ، وإنما هو كذب محض ، وغرضه مما قاله التلبيس أو مصلحة الدنيا ، وذلك هو الكفر المحض والزندقة .

ولا يلزم كفر المتأولين ، وما من فرقة من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه . فليدع الناس عن التأويل أحمد بن حنبل رحمة الله عليه ، وأبعد التأويلات عن الحقيقة وأعربها أن تجعل الكلام سجازاً أو استعارة ، وهو الوجود الحنبل والوجود الشيعي ، والحنبل مضطر إليه ، وقائل به . فقد سمعت الثقات من أئمة الحنابلة بيغداد يقولون إن أحمد بن حنبل رحمه الله صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط .. لأنه لم يكن ممعناً في النظر العقلي .

والأشعري والمعتزلي لزيادة بحثهما ، تجاوزاً إلى تأويل ظواهر كثيرة ، وأقرب الناس إلى الحنابلة في أمور الآخرة الأشعرية — وفقهم الله — فإنهم قرروا فيها أكثر الظواهر إلا يسيراً والمعتزلة أشد منهم توغلاً في التأويلات .. (١) .

ومن الناس من يبادر إلى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع ، ولا ينبغي أن يبادر أيضاً إلى كفره في كل مقام ، بل ينظر فيه ، فإن كان تأويله في أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهماتها فلا نكفره .. ولعل الظن في مثل هذه الأمور التي لا تتعلق بأصول الاعتقاد يجري مجرى البرهان في أصول الاعتقاد فلا يكفر فيه ولا يبدع .

(١) المصدر السابق ، ص ٥٠ ، ٩٠ ، ١٠٠ .

نعم ، إن كان فتح هذا الباب يؤدي إلى تشويش قلوب العوام فيبذخ
به . . . وأما ما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة فيجب تكفير من
يغير الظاهر بعير برهان قاطع ، كالذي ينكر حشر الأجساد ، وينكر
العقوبات الحسية في الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان
قاطع ، فيجب تكفيره قطعاً ، إذا لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى
الأجساد ، وذكر ذلك عظيم الضرر في الدين ، فيجب تكفير كل من تعلق
به . وهو مذهب أكثر الفلاسفة .

وكذلك يجب تكفير من قال منهم إن الله تعالى لا يعلم إلا نفسه ،
أو لا يعلم إلا الكليات ، فأما الأمور الجزئية المتعلقة بالأشخاص فلا
يعلمها ، لأن ذلك تكذيب للرسول ﷺ قطعاً ، وليس من قبيل الدرجات التي
نكرناها في التأويل ..

والزندقة المطلقة : أن تنكر أصل المعاد عقلياً وحسبياً . وتنكر
الصانع للعالم أصلاً ورأساً .

وأما إثبات المعاد بنوع عقلي مع نفى الآلام واللذات الحسية .
وإثبات الصانع مع نفى علمه بتفاصيل العلوم فهي زندقة مقودة بنوع
اعتراف بصدق الأنبياء (١) .

.. وأعلم أن شرح ما يكفر به وما لا يكفر به يستدعي تفصيلاً
طويلاً .. فائقع الآن بوضعية وقانون :

(١) انظر السابق : ص ١٣ - ١٥ .

أما الوصية فإن تكفأ لسالك عن أهل القبلة ما اعتنك ما دامس
قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله . غير منافقين لها ، والمنافقة :
تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ بغير أو غير عذر . فإن التكفير ليسه
خطر ، والسكوت لا خطر فيه .

وأما الثأون : فهو أن تحم أن النظريات قسمان . قسم يتعلق
بأصول التواعد ، وقسم يتعلق بالفروع . وأصول الإيمان ثلاثة : الإيمان
بالله ، وبرسوله ، وباليوم الآخر . وما عداه فروع .

وأعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً إلا في مسألة واحدة وهي أن
ينكر أصلاً ديناً علم من الرسول ﷺ بالثواتر ، ولكن في بعضها تخطئة ،
كما في الفتويات ، وفي بعضها تبديع ، كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال
الصحابة .

وأعلم أن الخطأ في أصل الإمامة وتعيينها وشروطها وما يتعلق بها
لا يوجب شن منه التكفير .. ولا يلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة
ويجعلون الإيمان بالإمام مقروناً بالإيمان بالله وبرسوله ولا إلى خصومهم
المكفرين لهم بمجرد مذهبهم في الإمامة ، فكل ذلك إسرائف . إذ ليس في
واحد من القولين تكذيب للرسول ﷺ أصلاً ، ومتى وجد التكذيب وجب
التكفير وإن كان في الفروع .

نعم ، لو أنكر ما ثبت بأخبار الأحاد فلا يلزمه به الكفر . ولو أنكر
ما ثبت بالإجماع فهذا فيه نظر . لأن مرفة كون الإجماع حجة قاطعة فيه
شعوض يعرفه المحضون لعلم أصول الفقه .. فهذا حكم الفروع .

وأما الأصول الثلاثة ، وكل ما لا يحتمل التأويل في نفسه ، ويتواتر
نقده ، ولم يتصور أن ينوم برهان على خلافه فمخالفته تكذيب محض (١).

ولا ينبغي أن يظن أن التكفير ونفيه ينبغي أن يدرك قطعاً في كل مقام ،
بل التكفير حكم شرعي يرجع إلى إباحة المال وسفك الدم والحكم بالخلود
في النار ، فماخذ كماله سائر الأحكام الشرعية فتارة يدرك بيقين وتارة
يظن وتارة يتردد فيه ومتى حصل تردد فالوقف فيه عن التكفير أولى ،
والمبادرة إلى التكفير إنما يغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل ،
ولا بد من التنبيه على قاعدة أخرى ، وهو أن المخالف قد يخالف نصاً
متواتراً يزعم أنه مؤول ، ولكن ذكر تأويله لا انتداح ثمة أصلاً في
اللسان ، لا على بعد ولا على قرب ، فذلك كفر ، وصاحبه مكذب وإن كان
يزعم أنه مؤول ، مثاله : ما رأيته في كلام بعض الباطنية أن الله تعالى
واحد بمعنى أنه يعطى الوحدة ويخلقها ، وعالم بمعنى أنه يعطى العلم
لغيره ويخلقها ، وموجود بمعنى أنه يوجد غيره ، وأما أن يكون واحداً في
نفسه وموجوداً وعالمًا على معنى اتصافه فلا ، وهذا كفر صراح ، لأن
حمل الوحدة على إيجاد الوحدة ليس من التأويل في شيء ، ولا تحتمله لغة
العرب أصلاً ، ولو كان خالق الوحدة يسمى واحداً لخلق الله الوحدة
تسمى ثانياً وأربعاً لأنه خلق الأعداد أيضاً ، فأمثلة هذه المقالات تكذيبات
عقياً منها بالتأويلات ..

(١) المضمر السابق ، ص ١٤ ، ١٦ .

ومعرفة ما يقبل التأويل وما لا يقبل التأويل ليس بالهين ، بل لا يستقل به إلا الماهر الحائق في علم اللغة ، العارف بأصول اللغة ، ثم بعادة العرب في الاستعمال في استعاراتها وتجاوزاتها ومنهاجها في ضروب الأهتال^(١) .

* * *

وإن ما لا يعظم ضرره في الدين فالأمر فيه سهل وإن كان القول شنيعاً وظاهر البطلان ، كتقول الإمامية المنتظرة إن الإمام مخف في سرداب فإنه ينتظر خروجه . قتاله قول كاذب ظاهر البطلان - شنيع جداً ، ولكن لا ضرر فيه على الدين ، إنما الضرر على الأحقق المعتقد لذلك ، إذ يخرج كل يوم من بلده لاستقبال الإمام حتى يدخل فيرجع إلى بيته خاسئاً - وهذا مثال - والمقصود : أنه لا ينبغي أن يكفر بكل هذيان وإن كان ظاهر البطلان .

فإذا فهمت أن النظر في التكفير موقوف على جميع هذه المقامات التي لا يستقل بأحاديها المبرزون ، علمت أن الميائير إلى تكفير من يخالف الأشعرى^(٢) أو غيره ، جاهل مجازف . وكيف يستقل الفقيه بمجرد الفقه بهذا الخطب العظيم ؟ وفي أي ربع من أرباع الفقه يصادف هذه العلوم ؟ فإذا رأيت الفقيه الذي بضاعته مجرد الفقه يخوض في التكفير والتضليل فأعرض عنه ولا تشغل به قلبك ولسانك ، فإني التحدي بالعلوم

(١) السند السابق ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) هو أبو الحسن الأشعرى (٢٦٠ - ٣٤٤ هـ / ٨٧٤ - ٩٣٦ م) إمام أهل السنة والجماعة - الأشعرية مع السائرية - نسبة إلى الشيرازي (٣٢٣ هـ / ٩٤٤ م) يمثلون الجمهور الغالب من أهل السنة والجماعة .

غريزة في الطبع لا يصبر عنه الجهال . ولا جهة كثر الخلاف بين الناس .
ولو ينعت من الأيدي من لا يدري لذل الخلاف بين الخلق (١) .

والحق الصريح أن قل من اعتقد ما جاء به الرسول عليه الصلاة
والسلام واستعمل عليه القرآن اعتقاداً جزءاً فهو مؤمن وإن لم يعرف
أنته ، بل الإيمان المستفاد من التلويح الكلامي ضعيف جداً . مشرف على
الزوال بكل شبهة (٢) .

وأنا أقول :

إن الرحمة تشمل كثيراً من الأسماء السابقة ، وإن كان أكثرهم
يعرضون على النار إما عرصة خفيفة حتى في لحظة أو ساعة وإما في
مدة حتى يطلق عليهم اسم بعت النار .

بل أقول : إن أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان تشبهون
الرحمة إن شاء الله تعالى ، أصلي اثنين هم في أقاصي الروم والترك وهم
تبلغهم الدعوة ، فإنهم ثلاثة أصناف :

صنف لم يبلغهم اسم محمد ﷺ أصلاً ، فهم معذرون .

وصنف بلغهم اسمه ونعته وما ظهر عليه من المعجزات . وهم

المعذرون ألبتد الإسلام والمفالمعون لهم ، وهم الكفار الملحدون .

(١) (فصل التفرقة) ، ص ١٩ .

(٢) المصدر السابق : ص ٢١ - ٢٢ .

وصنف ثالث بين الدرجتين ، بلغهم اسم محمد ﷺ ولم يبلغهم نعتيه وصفته بل سمعوا أيضا - منذ الصبا - أن كذابا ملئما اسمه محمد ادعى النبوة ، كما سمع صبياننا أن كذابا يقال له المققع^(١) بعثه الله نحدي بالشيرة كاذبا . فهو لاء عندي في معنى الصنف الأول ، فإنهم مع أنهم سمعوا اسمه سمعوا ضد أوصافه ، وهذا لا يحرك داعية النظر في الطالب .

وأما سائر الأمم ، فمن كذبه بعد ما قرع سمعه التواتر عن خروجه وصفته ومعجزاته الخارقة للعادة ، كشق القمر ، وتبيح الخصى ، ونبيع الماء من بين أصابعه ، والقرآن المعجز الذي تحدى به أهل فصاحة وعجزوا عنه ، فإذا قرع ذلك سمعه فأعرض عنه وتولى ولم ينظر فيه ولم يتأمل ولم يبادر إلى التصديق ، فهذا هو الجاحد الكاذب . وهو الكافر ، ولا يدخل في هذا أكثر الروم والترك الذين بعثت بلادهم عن بلاد المسلمين .

بل أقول : من قرع سمعه هذا فلا بد أن تتبعته به داعية الطالب ليستبين حقيقة الأمر إن كان من أهل الدين ، ولم يكن من الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، فإن لم تتبعته هذه الداعية فذلك لركونه إلى الدنيا ، وخلوة عن الخوف ، وخطر أمر الدين ، وذلك كفر .

(١) أي عبد الله بن السقع . (١٠٦ - ١٤٢ هـ / ٧٢٤ - ٧٥٩ م) اتهم بالزندقة ، وقتله المهدي العباسي - في البصرة - في ولاية أميرها سفيان بن معاوية المهلبى .

وإن اتبعنا الداعية فقتصر في الطلب ، فهو أيضاً كافر ، بل ذو الإيمان بالله واليوم الآخر من أهل كل ملة لا يمكنه أن يفتر عن الطلب بعد ظهور المخاليل بالأسباب الخارقة للعادة .

فإن اشتغل بالنظر والطلب ولم يقصر فأدركه الموت قبل تمام التحقيق فهو أيضاً مغفور له ، ثم له الرحمة الواسعة ، فاستوسع رحمة الله تعالى ولا تزن الأمور الإلهية بالموازين المختصرة الرسمية ..

والمخزون في النار بالإضافة إلى الناجيين والمفرجين منها في الآخرة نادر ، فإن صفة الرحمة لا تتغير باختلاف أحوالنا ، وإنما الدنيا والآخرة عيارتان عن اختلاف أحوالك ، ولولا هذا لما كان لقوله عليه الصلاة والسلام معنى حيث قال : " أول ما خط الله في الكتاب الأول : أنا الله لا إله إلا أنا ، سبقت رحمتي غضبي " فمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فله الجنة ..

فأبشر برحمة الله وبالنجاة المطلقة إن جمعت بين الإيمان والعمل الصالح ، وبالهلاك المطلق إن خلوت عنهما جميعاً ، وإن كنت صاحب يقين في أصل التصديق وصاحب خطأ في بعض التأويل أو صاحب شك فيهما أو صاحب خلط في الأعمال فلا تطمع في النجاة المطلقة * (١) .

" .. واعلم أن للفرق في (التكفير) مبالغات وتعصبات ، فربما انتهى بعض الطوائف إلى تكفير كل فرقة سوى الفرقة التي يعتزى إليها .

(١) (فيجبل التفرقة) ، ص ٢٣ - ٢٥ .

فإذا أردت أن تعرف سبيل الحق فيه فاعلم قيل كل شئ أن هذه مسألة فقهية ، أعني الحكم بتكفير من قال قولاً وتعاطى فعلاً ، فإنها تارة تكون معلومة بأدلة سمعية ، وتارة تكون مظنونة بالاجتهاد ، ولا مجال لدليل العقل فيها البتة ^(١) .

فإذا تقرر هذا الأصل ، فقد قررنا في أصول الفقه وفروعه أن كل حكم شرعى يدعى مدع فلهما أن يعرفه بأصل من أصول الشرع من إجماع أو نقل أو قياس على أصل . وكذلك كون الشخص كافراً ، إما أن يسدرك بأصل أو بقياس على ذلك الأصل .

والأصل المخطوع به أن كل من كذب محمداً ﷺ فهو كافر ، أى سخذ فى النار بعد الموت ~~وهو كاذب~~ — إلى جنس الأحكام — إلا أن التكذيب على مراتب :

الرتبة الأولى : تكذيب اليهود والنصارى وأهل الملل كلهم من المجوس وعبدة الأوثان وغيرهم ، فتكفيرهم منصوص عليه فى الكتاب ، ومجمع عليه بين الأمة ، وهو الأصل ، وما عداه كالملاحق به .

الرتبة الثانية : تكذيب البراهمة المنكرين لأصل النبوات ، والدهرية المنكرين لمصانع العالم ، وهذا ملحق بالخصوص بطريق الأولى . لأن هؤلاء كذّبوه وكذبوا خبره من الأنبياء — أعني البراهمة — فكانوا بالتكثير أولى من النصارى واليهود . والدهرية أولى بالتكثير من البراهمة . لأنهم

(١) أبو حامد الغزالي (الاقتصاد فى الاعتقاد) ، ص ١٤١ ، طبعة مكتبة صبيح —

ضمن : مجموعة من القاهرة . بدون تاريخ .

أضافوا إلى تكذيب الأنبياء إنكار المرسل . ومن ضرورية إنكار النبوة .
ويلتحق بيده الرتبة كل من قال قولاً لا يثبت النبوة في أصلها ، أو نبوة
نبينا محمد على الخصوص إلا بعد بطلان قوله .

الرتبة الثالثة : الذين يصدقون بالنصائع والنبوة ، ويصدقون النبوة
ولكن يعتقدون أموراً تخالف نصوص الشرع ، ولكن يقولون إن النبي
محق ، وما قصد بما ذكره إلا صلاح الخلق ، ولكن لم يقدّر على التصريح
بالحق لكلال أفهام الخلق عن دركه . وهؤلاء هم الفلاسفة ، وهؤلاء يجب
تكفيرهم في ثلاثة مسائل ، وهي :

إنكارهم لحشر الأجساد والتعذيب بالنار والتعظيم في الجنة بالحوار
العين والمأكول والمشروب والمسيوس ، والأخرى قولهم إن الله لا يعلم
الجزئيات وتفصيل الحوادث وإنما يعلم الكليات ، وإنما الجزئيات تعظمها
الملائكة السماوية .

وإثباته قولهم إن العالم قديم . وأن الله تعالى متقدم على العالم بالرتبة
سأل تقدم العلة على السعول ، وإلا فلم تر في الوجود إلا متساويين .

وهؤلاء إذا أوردوا عليهم آيات القرآن زعموا أن الآيات العلقية
تفسر الأفهام عن دركها ، فسلّم لهم ذلك بالآيات الحسية . وهذا كفر
صريح ، والقول به يبطال لفائدة الشرائع وبإبطال الاهتداء بنور القرآن
واستبعاد الرشد من قول المرسل ، فإنه إذا جاز عليهم الكذب لأجل المصالح
بطلت الثقة بأقوالهم ، فما من قول يصدر عنهم إلا ويتصور أن يكون
كذباً ، وإنما قالوا ذلك لمصلحة .

(فإن قيل) : فلم قلتم ، مع ذلك ، بأنهم كفرة ؟

قلنا : لأنه عرف قطعاً من التخرج أن من كذب رسول الله فهو كافر ،
وهؤلاء مكتوبون ، ثم مغلون للكذب بمعاذير فاسدة ، وذلك لا يخرج الكلام
عن كونه كذباً .

الرتبة الرابعة : المعتزلة والتمهيدية والفرق كلها - سوى الفلاسفة -
وهم الذين يصدقون ، ولا يجوزون الكذب لمصلحة وغير مصلحة ،
ولا يشتغلون بالتخيل لمصلحة الكذب . بل بالتأويل ، ولكنهم مخطئون في
التأويل ، فهؤلاء أمرهم في محل الاجتهاد ، والسؤال ينبغي أن يحيل
المنعزل إليه ، الاحتراز من التكفير بما وجد إليه سبيلاً ، فإن استباحة
الدماء والأموال من المسلمين إلى ثلاثة المصالحين بقول لا إله إلا الله
محمد رسول الله خطأ ، والخطأ في تركه ألف كافر في الحياة الفوق مـ
الخطأ في سبكه سبعة من دم مسلم ..

وهذه الفرق مقسمون إلى مرقين وعلة وإلى مفتكرين بالامتناع
إيهم . ثم المجتهد الذي يرى تكفيره قد يكون ظنه في بعض المسائل
وعلى بعض الفرق أشهر ، وبمصيل أحد تلك المسائل يتناول ، ثم يشير
الفقن والاحقاد ، فإن أكثر الخاطئين في هذا إنما يحركهم التعصب
وشجاج الهوى دون النظر للدين .

ودليل المنع من تكفيرهم أن النابت عندنا بالنص تكفير المكذوب
لرسول ، وهؤلاء ليسوا مكذبين أصلاً ، ولم يثبت لنا أن الخطأ في
التأويل موجب للتكفير ، فلا بد من دليل عليه ، ويثبت أن العصمة مستفادة
من قول لا إله إلا الله قطعاً ، فلا يدفع ذلك إلا بقاطع ، وهذا القدر كاف

فى التنبيه على أن إسراف من بالغ فى التكفير ليس عن برهان ، فإن
البرهان إما أصل أو قياس على أصل ، والأصل هو التكذيب التصريح ،
ومن ليس بمكذب فليس فى معنى المكذب أصلاً ، فيبقى تحت عموم
العصمة بكلمة الشهادة .

الرتبة الخامسة : من ترك التكذيب التصريح ولكن ينكر أصلاً عن
أصول الشرعيات المعلومه بالتواتر من رسول الله ﷺ أو رسول القائل :
الصلوات الخمس غير واجبة ، فإذا قرئ عليه القرآن والاداء قال ليست
أعلم صدر هذا من رسول الله ، فلعنه غلط ونحريف . ويمكن يقول أنه
معتزف بوجوب الحج ، ولكن لا يرى أين عكسه وأين الكنية ولا أدري أين
البلد الذى تستقبله الناس ويحجونه هل هو فى البلد التى حجها النبى عليه
الصلاة والسلام ووصفيا القرآن ، فهذا أيضاً يلغى أن يحكم بكفره لأنه
مكذب ولكنه محترز عن التصريح ، وإلا فالمتواترات تشترك فى تركها
العوام والنواص .. إلا أن يكون هذا الشخص قريب عهد بالإسلام ، ولم
يتواتر عنده بعد هذه الأمور فيمهل به إلى أن يتواتر عنده ، ولنا نكفروه
لأنه أنكر معلوماً بالتواتر ، وأنه لو أنكر غزوة من غزوات النبى ﷺ
المتواترة ، أو أنكر وجود أبى بكر وخلافته لم يلزم تكفيره ، لأنه ليس
تكذيباً فى أصل من أصول الدين مما يجب التصديق به ، بخلاف الحج
والصلاة وأركان الإسلام ولنا تكفروه بمخالفة الإجماع .. لأن الشبهة

كثيرة في كون الإجماع حجة قاطعة ، وإنما الإجماع عبارة عن التطابق على رأي نظري (١) .

هكذا رأينا جمهور أهل السنة والجماعة — بلان حجة الإسلام أبو حامد الغزالي — لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بتبديل لا إله إلا الله محمد رسول الله ..

* لا يكفرون الشيعة الإمامية بقولهم في الإمامة ، رغم ما في عقيدتهم هذه من حمالة وشذوذ .. ورغم تكفير جمهور الشيعة لمن لا يتفق معهم في عقيدتهم في الإمامة .

ولا يكفرون أحداً من المبطلين الذين ، يلتزمون قوانين التأويل ..
* ولا يكفرون أحداً من الفرق المخالفة — مثل المعتزلة أو المشيية أو غيرها — لأن معيار الإيمان هو التصديق بما جاء به رسول الله ﷺ .. ومعيار الكفر هو التكذيب لما جاء به الرسول — وخاصة في الأصول ..
وس هنا كان زجرهم عن المسارعة إلى التكفير .. وتكفيرهم على أن هذه القضية فقيية شرعية لا تثبت إلا بأصل أو قياس على هذا الأصل ..
ولا تثبت بالرأي والعقل .. ومن ثم فإن الاحتراز من التكفير واجب ما وجد المرء إليه سبيلا ، فإن استحالة الدماء والأموال من العصاة إلى القبلة ، المصريحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ ، والخطأ في

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٢ — ١٤٥ .

ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سبك محبة من دم
مسلم !

— كما يقول الغزالي — :

وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

أصل من أصول الأحكام في الإسلام : البعد عن التكفير .. ولما
اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد دينهم أنه إذا صدر قول من قائل
يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمل على
الإيمان . ولا يجوز حمله على الكفر .. فهل رأيت سماعاً مع أقوال
الخلافة الحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من
الحق بحيث يقول قولاً لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائة
وجه ؟ (١) .

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ ، دليمة القاهرة

سنة ١٩٩٢ م .

مستويات الخطاب .. ومستويات المخاطبين

يؤمن المنهج الإسلامي بوحدة الحقيقة .. وليس بتعددتها — كما هو الحال في المناهج الوضعية الغربية ، التي تقسم الحقيقة إلى : عقلية علمية لا دينية ، ودينية لا عقلانية .

ويؤمن المنهج الإسلامي بحق كل إنسان مكلف في السعي إلى طلب الحقيقة وتحصيلها .. * فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها * .. وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .. أى أن الإسلام يتجاوز جعل العلم والحكمة والحقيقة مجرد * حق * من حقوق الإنسان ، إلى حيث يجعل ذلك * فريضة إلهية وتكليفاً شرعياً وواجباً ربانياً * لأنه لا يسوى بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، ولأن خطاب الإسلام موجه — بالأساس — إلى الذين يتفكرون ويتدبرون ويعقلون .. ولأن الدين علم ، وبدون العلم والمعرفة يستحيل على الإنسان أن ينهض بالأمانة التي حملها ، أمانة العمران لهذا الكوكب الذي يعيش فيه .. والشكر لواهب النعم في هذا الوجود ..

لكن .. لما كانت مستويات الناس — القطرية ، والكسبية ، متفاوتة ، تفاوتت — لذلك — إمكاناتهم وطاقاتهم وحظوظهم في تحصيل ما يحصلون

من الحقائق والمعارف والعلوم .. وليس في ذلك شبهة طبقية ولا كهانة ،
كتلك التي عرفتھا حضارات قديمة وديانات أخرى ، حجرت على عامة
الناس ميادين كثيرة من العلم الدينى والمعارف الدنيوية .. وإنما هو
المنهج الإسلامى الذى يفتح أبواب ميادين المعارف والعلوم على
مصاريعھا أمام الكافة ، ثم يطلب من كل إنسان أن يحمل من العلم قدر
الطاقة والاستعداد والجهد الذى يبذله فى الطرب والتحصيل .

ولهذه الحقيقة من حقائق المنهج الإسلامى تمايزت مستويات
" الخطاب الإسلامى " وفق تمايز المستويات العقلية للمخاطبين .. فمع
وجود المقادير الضرورية التى لا يستغنى عنها المكلف من المعارف
والعلوم .. الدينية والدينية — هناك مستويات وألوان من الحقائق
والمعارف والعلوم لا يدركها إلا العلماء .. وهناك مستويات أخرى
لا يدركها إلا الراسخون فى العلم .. ووراء جميع ذلك هناك مستويات من
العلم لا يدرك العقل الإنسانى كنه حقائقھا وجوهر مكوناتھا .. بل
لا تستطيع اللغة أن تعبر عن هذا الجوهر والكنه والمكنون ، لأنها من علم
الله الكلى والمطلق والمحيط ، وليست من العلم النسبى والمعارف النسبية
المقدورة للإنسان .. ولهذا تقسم من العلم الإلهى بضرب الله الأمثال الشئ
تقرب صورته إلى الإنسان .

ولهذا الحقيقة من حقائق هذا المنهج الإسلامى ، فى تعدد مستويات
الخطاب الإسلامى ، وفق تعدد مستويات الإدراك والتفكير لدى المخاطبين ،

ميز القرآن الكريم بين " المحكم " الذى يدركه جمهور المخاطبين .. وبين " المتشابه " ، الذى يعرف تأويل بعضه الراسخون فى العلم .. ولا يدرك مآلات بعضه الآخر إلا الله — سبحانه وتعالى — .. ودعا الإسلام الكافّة إلى تجنب تأويل هذا القسم ، الذى تعلو حقائقه الكلية عن مدارك العقل النفسية ، كي لا تكون فتنة بين الناس .

ولقد جاء فى الحديث النبوى الشريف : " أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم — رواه الديلمى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — وأورده السيوطى فى [جامع الأحاديث] .

ولقد عقد الإمام البخارى — فى كتاب العلم — باباً " لمن خصّ بالعلم قوما دون قوم كراهة أن لا يفهموا " .. وأورد فيه عن على بن أبى طالب — رضى الله عنه — قوله : " حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ " .

وفى مقالات الإسلاميين لإمام أهل السنة والجماعة أبو الحسن الأشعري (٢٦٠—٣٢٤هـ—٨٧٤—٩٣٦م) [— نجد أن " المباحث العالية فى دقيق الكلام " لا يدركها إلا الراسخون فى العلم من أصحاب المقالات ..

وانطلاقاً من هذه الرؤية ، كان اجتماع علماء الإسلام على ضرورة حجب مستويات من العلم عن الذين لم يحصلوا من الأدوات ما يجعلهم يطبقون فقه هذه المستويات ، وذلك حتى لا تتحول الحقائق — عند من لا طاقة لهم بفقيها — إلى سبيل البلبلة أو الضلال ، أو الشكوك التى لا يستطيعون التخلص من دواستها إلى شاطئ اليقين والأطمئنان .

* ولقد كان حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ - ١٠٥٨ - ١١١١] من أكثر العلماء الذين وضعوا الكتب والرسائل في تقعيد قواعد هذا المنهاج - منهاج التمييز والتحديد لمستويات الخطاب ، وفق تمايز مستويات المخاطبين ..

ومن الكتب النفيسة التي خصصها الغزالي لهذا المنهج كتابه : [إحياء العوام عن علم الكلام] .. ذلك أن علم الكلام إنما نشأ - في الحضارة الإسلامية - على يد المعتزلة - للرد على خصوم الإسلام ، وللجندل مع المعتندين من أصحاب الفلسفات والديانات غير الإسلامية .. فهو بمثابة " ترسانة الحرب الخارجية " القائمة على الثغور .. فإذا تحولت أسلحته إلى " الصراعات الداخلية " وإذا استخدمت هذه الأسلحة غير المدربين على استخدامها ، وغير القادرين على حملها ، كانت فتنة كبرى بين الجمهور والعوام .

ولذلك ، قرر الغزالي - في هذا الكتاب - أن من بحر علم الكلام ومبادئه ومصطلحاته ما لا تجوز المباحة فيه لغير القادرين على فقه " دقيق الكلام " .. وهو يرد على الذين ينكرون تمايز مستويات الخطاب بتمايز مستويات المخاطبين ، بحجة عموم الخطاب ، وأن الله - سبحانه وتعالى - لا يخاطب الخلق بما لا يفهمون .. يرد الغزالي على أصحاب هذا القول .. ويحاورهم .. فيقول :

" .. وإن قلت " :

- فأى فائدة في مخاطبة الخلق بما لا يفهمون ؟

وجوابك :

— إنه قصد بهذا الخطاب تفهيم من هو أهله ، وهم الأولياء والراسخون في العلم ، وقد فهموا ، وليس من شرط من خاطب العقلاء بكلام أن يخاطبهم بما يفهم الصبيان والعوام بالإضافة إلى العارفين كالصبيان بالإضافة إلى البالغين ، وتكن على الصبيان أن يسألوا البالغين عما يفهمونه ، وعلى البالغين أن يجيبوا الصبيان بأن هذا ليس من شأنكم ، ولستم من أهله ، فخوضوا في حديث غيره .

ويجب على كل من لا يقف على كنه هذه المعاني وحقيقتها ، ولم يعرف تأويلها والمعنى المراد به أن يقر بالعجز ، فإن التصديق واجب ، وهو عن دركه عاجز ، فإن ادعى المعرفة فقد كذب . . .

بل إن الراسخين في العلم والعارفين من الأولياء إن جاوزوا في المعرفة حدود العوام وجاتوا في ميدان المعرفة ، وقطعوا من بواديها أميالا كثيرة ، فما بقى لهم مما لم يبلغوه بين أيديهم أكثر ، بل لا نسبة لما طوى عنهم إلى ما كشف لهم ، لكثرة المطوى وقلة المكتشف بالإضافة إليه ، والإضافة إلى المطوى المستور .

وإن مستند إيمان العوام في هذه الأسباب وأعنى الدرجات في حقه : أدلة القرآن وما يجرى مجراه مما يحرك القلب إلى التصديق . ولا ينبغي أن يجاوز العامي إلى ما وراء أدلة القرآن وما في معناه . بل لو اشتغل العامي بالمعاصي البدنية ربما كان أسلم له من أن يخوض في البحث عن

معرفة الله تعالى ، لأن ذلك غايته الفسق ، وهذا عاقبته الشرك ، وإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ^(١) .

كما كتب الغزالي -- كذلك -- في هذا الفن -- كتابه : [المضمون به على غير أهله] .. وفيه يقرر أن من الحقائق ما لا يعلمها العقلاء -- فضلا عن العوام -- لأنها مما استأثر الله -- سبحانه -- بعلمه :

" ذلك أن وراء ما يتصوره العقلاء أمورا ورد الشرع بها ولا يعلم حقائقها إلا الله تعالى والأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده ^(٢) .

كما كتب الغزالي -- أيضا في هذا الموضوع رسالته [الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية] أي [المضمون الصغير] .. وفيها تحدث عن مذهب السلف ، الذي هو : زجر العوام عن الخوض في علم الكلام .. وإياحته للراشخين في العلم ، مستخدما مثال السباحة في النهر للتمييز بين القادرين عليها وبين غير القادرين .. فقال :

" .. ولهذا زجر السلف عن البحث والتفتيش عن علم الكلام ، وإنما زجروا عنه لضعاف العوام ، وأما المشتغلون بدرك الحقائق فلهم خوض غمرة الإشكال . ومنع الكلام للعوام يجري مجرى منع الصبيان من شاطئ

(١) الغزالي [إجماع العوام عن علم الكلام] ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٩٧ ، ٢٦٣ ، طبعة القاهرة --

مكتبة الجندی ضمن مجموعة [القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي] بدون تاريخ .

(٢) الغزالي [المضمون به على غير أهله] ص ٣٢٥ -- طبعة مكتبة الجندی -- ضمن

مجموعة [القصور العوالي] ..

نهر دجلة خوفاً من الغرق ، ورخصة الأقوياء فيه تضاهي رخصة الماهر
في صنعة السباحة * (١) .

هكذا أفاض حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في تحديد مستويات
الخطاب وفق تمايز مستويات المخاطبين .



* فلما جاء الفيلسوف الفقيه أبو الوليد ابن رشد [١١٢٦-١١٩٨م] سار على طريق الغزالي .. فتحدث عن وحدة
الحقيقة ، وعن تعدد طرق التصديق بهذه الحقيقة الواحدة وذلك تبعاً لثلاثة
مستويات المخاطبين المتكلمين بهذا التصديق .

فهو يؤكد على وحدة الحقيقة في الذات الإلهية .. وفي الشريعة
الإلهية .. وفي المخلوقات مع تعدد طرق التصديق بهذه الحقيقة الواحدة ،
تبعاً لتعدد جبال الناس وطباع الجمهور : عامة وحكام .. ومتوسطين
بينهما .. فيقول :

‘ إنا نعتقد ، معشر المسلمين ، أن شريعتنا هذه الإلهية حق ، وأنها
التي نهت على هذه السعادة ودعت إليها ، التي هي المعرفة بالله — عز
وجل — وبمخلوقاته ، فإن ذلك متقرر عند كل مسلم من الطريق الذي
اقتضته جبلته وطبيعته من التصديق ، وذلك أن طبائع الناس متفاوتة في
التصديق ، فمنهم من يصدق بالبرهان ، ومنهم من يصدق بالأقوال

(١) الغزالي [المضمون الصغير] ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ — طبعة مكتبة الجندي — ضمن
مجموعة [القصور الموالى] .

الجدلية تصديق صاحب البرهان بالبرهان ، إذ ليس في طباعه أكثر — من ذلك — ومنهم من يصدق بالانقاول الخطابية كتصديق صاحب البرهان بالانقاول البرهانية . وشريعتنا قد دعت اناس من هذه الطرق الثلاث . . . وذلك خصّ عليه الصلاة والسلام بالبحث إلى الأحمر والأسود . أعنى لتضمن شريعته طرق الدعاء إلى الله تعالى . وذلك صريح في قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » (١) .

وهذا التمايز بين الناس — حكباء .. وجمهورا .. وموسطين بينهما — ليس في تمايز الخلق والمعالي التي يتركها التي يتركها فريق على الفريق الآخر .. وإنما هو في ' القدر والنصيب ' الذي يستطيع إدراكه كل فريق من ذلك الحقيقة الواحدة .. وبعبارة ابن رشد :

« فالطريقة الشرعية التي دعا الشرع منها جميع الناس على اختلاف فطرهم ، إلى الإقرار بوجود الباري سبحانه .. والتي نية الكتاب العزيز عليها ، واعتمدها الصحابة .. تنحصر في جنسين . دليل العناية ، ودليل الاختراع .. ولقد تبين أن هاتين الطريقتين هما بأعينهما طريقة الخواص — وأعنى الخواص العلماء — وطريقة الجمهور . وإنما الاختلاف بين المعرفتين في التفصيل ، أعنى أن الجمهور يقتصرون من معرفة العناية والاختراع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحس ، وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس

ما يدرك بالبرهان ، أعنى من العناية والاختراع .. والعلماء ليس
 يفضلون الجمهور فى هذين الاستدلالتين من قبل الكثرة فقط ، بل ومن قبل
 التعقق فى معرفة الشيء الواحد نفسه . فإن مثال الجمهور فى النظر إلى
 الموجودات مثالهم فى النظر إلى المصنوعات التى ليس عندهم علم
 بصنعها ، فإتهم إنما يعرفون من أمرها أنها مصنوعات فقط وأن لها
 صانعا موجودا . ومثال العلماء فى ذلك مثال من نظر إلى المصنوعات
 التى عندهم علم ببعض صنعها وبوجه الحكمة فيها . أما مثال الذريسة
 فى هذا ، الذين جحدوا الصانع سبحانه ، فمثال من أحس مصنوعات فلم
 يعترف أنها مصنوعات ، بل ينسب ما رأى فيها من الصنعة إلى الاتفاق
 والأمر الذى يحدث من ذاته .. (١)

” وإذا كان الغزالي قد دعا إلى منع غير الراسخين فى العلم من
 التأويل .. فإن ابن رشد قد دعا إلى منع التأويل فى مبادئ الشريعة وفى
 المعجزات — أى فيما لا تدركه العقول الإسمائية — حتى على الحكماء
 من الفلاسفة .. فقال :

” فإن الحكماء من الفلاسفة ليس يجوز عندهم التكلم ولا الجدل فى
 مبادئ الشرائع ، وفاعل ذلك عندهم يحتاج إلى الأدب الشديد ، وذلك أنه
 لما كانت كل صناعة لها مبادئ ، وواجب على الناظر فى تلك الصناعة أن
 يسلم مبادئها ، ولا يتعرض لها بنفى ولا إبطال ، كانت الصناعة العملية

(١) ابن رشد [مناهج الأدلة فى عقائد الملة] ص ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤ . دراسة وتحقيق :

د . محمود قاسم . طبعة القاهرة ١٩٥٥ م .

الشرعية أخرى بذلك ، لأن المسمى على الفضائل الشرعية هو ضرورى عندهم ، ليس فى وجود الإنسان بما هو إنسان ، بل وبما هو إنسان عالم ، ولذلك يجب على كل إنسان أن يسلم مبادئ الشريعة وأن يقلد فيها ، فإن جردها والمناظرة فيها مبطلان لوجود الإنسان ، ولذلك يجب قتل الزناذقة . فالذى يجب أن يقال فيها : إن مبادئها أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية ، فلا بد أن يعترف بها مع جهل أسبابها ، ولذلك لا تجد أحداً من القدماء تكلم فى المعجزات ، مع انتشارها وظهورها فى العالم ، لأنها مبادئ تثبت الشرائع ، والشرائع مبادئ الفضائل ، ولا فيما يقال بعد الموت .

فإذا نشأ الإنسان على الفضائل الشرعية كان فاضلاً بإطلاق ، فإن تملأ به الزمان والسعادة إلى أن يكون من العلماء الراسخين فى العلم ، فعرض له تأويل فى مبدأ من مبادئها ، فيجب عليه أن لا يصرح بذلك التأويل ، وأن يقول فيه كما قال - تعالى - : ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ﴾ ^(١) .

إنه لا يجوز التأويل فى مبادئ الشريعة - [لأن التأويل هو عمل العقل فى الانتقال بدلالة اللفظ من الحقيقة إلى المجاز ، وفق قوانينه] - وهذه المبادئ الإلهية تفوق العقول الإنسانية .. وواجب على إنسان أن يسلم بها ويقلد فيها .. هذه هى حدود الشرائع وحدود العلماء ^(٢) .

(١) آل عمران : ٧ .

(٢) ابن رشد [تهافت التهافت] ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، طبعة القاهرة ١٩٠٣ م .

هكذا حدد ابن رشد حدود الشرائع ، ومبادئها التي لا يجوز فيها
الجدل ولا التأويل .. كما حدد حدود الجمهور وطريقتهم في التصديق ..
وحدود أهل الجدل من المتكلمين .. وكذلك حدود الحكماء والعلماء وسبيلهم
البرهاني إلى التصديق .

* وكما نبه ابن رشد على مذهب السلف في عدم التأويل ، نبه على
أن ظهور التأويل في الفكر الإسلامي قد ارتبط بتراجع النقوى في
المجتمعات الإسلامية .. فقال :

" إن الصدر الأول إنما صار إلى الفضيلة الكاملة والنقوى باستعمال
هذه الأقاويل التي ثبتت في الكتاب العزيز * دون تأويلات فيها ، ومن كان
منهم وقف على تأويل لم ير أن يصرح به .

وأما من أتى بعدهم ، فإنهم لما استعملوا التأويل قلّ تفواهم ، وكثر
اختلافهم ، وارتفعت محبتهم وتفرقوا فرقاً ، فيجب على من أراد أن يرفع
هذه البدعة عن الشريعة ، أن يعمد إلى الكتاب العزيز ، فيلتقط منه
الاستدلالات الموجودة في شيء شيء ، مما كلفنا اعتقاده ، ويجتهد في
نظره إلى ظاهرها ما أمكنه من غير أن يتأول من ذلك شيئاً ، إلا إذا كان
التأويل ظاهراً بنفسه أعني ظهوراً مشتركاً للجميع (١) .

* ومع كل هذه الضوابط التي أحاط بها ابن رشد قضية التأويل ..
ونقديم أساليب القرآن في الاستدلال وفي التصديق على غيرها من

(١) ابن رشد [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٦٥ ، دراسة

وتحقيق : د . محمد حمادة . طبعة القاهرة - دار المعارف - ١٩٩٩م .

الأساليب .. رأيناها يؤكد على أن هذا التأويل الذي هو حق للخاصة من
الراسخين في العلم ، لا يصريح به للعامة ، ولا يثبت في الكتب الجمهورية
— حتى ولو كان تأويلاً صحيحاً ، عسجماً لشروط التأويل وضوابطه ..
وبعبارة :

.. فهذا التأويل ليس ينبغي أن يصرح به لأهل الجدل ، فضلاً
عن الجمهور ، ومتى صرح بشيء من هذه التأويلات لمن هو من غير
أهلها .. أفضى ذلك بالمصرح له والمصرح إلى الكفر .. فليس يجب أن
تثبت التأويلات الصحيحة في الكتب الجمهورية ، فضلاً عن القاسدة ..
وأما المصرح بهذه التأويلات لغير أهلها فكافر .. (١) .

هذا هو المنهاج الإسلامي في :

* وحدة الحقيقة .

* وتعدد طرق التصديق بالحقيقة الواحدة ، تبعاً لتمييز مستويات

المخاطبين والمكلفين بهذا التصديق .. مستويات :

١— أهل البرهان من الحكماء والعلماء الراسخين في العلم .

٢— وأهل : الجدل — من المتكلمين .

٣— وأهل الخطابة والمواعظ .. من الجمهور .

(١) المصدر السابق . ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ . وانظر كذلك [مناهج الأدلة]

وإذا كان هذا المنهاج الإسلامي بديها ، لا تختلف فيه ولا حواسه
 القطر السليمة والعقول المستقيمة .. فلقد جاء القرآن الكريم مؤكداً له
 ومؤكداً عليه .. فأبنا فيه التمييز بين العلماء وبين الراسخين في العلم ..
 ووجدناه يدعو غير العلماء إلى الرجوع إلى أهل العلم — أهل الذكر — :
 « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ^(١) .

كما وجدنا واقع المجتمع الإسلامي في عصر النبوة تحسباً لهذا
 المنهاج ..

* فالخطاب الإسلامي عام للكافة والعالمين : « إن هو إلا ذكر
 للعالمين » ^(٢) . « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ^(٣) . « تبارك الذي
 نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ^(٤) .

* لكن المخاطبين بهذه الرسالة العامة والعالمية ليسوا سواء ، ففي
 مستويات التكفل أو في طاقات الفقه والاستيعاب .. ومن ثم فقد تمايزت
 مستويات الخطاب الإسلامي وأساليبه لتتناسب مستويات المخاطبين ، وكانت
 الأساليب القرآنية الفطرية مشتركة بين الجميع ووافية باحتياجات الجميع ..
 * ولذلك ، رأينا مجتمع النبوة تحسباً لهذا المنهاج .. فالذين آمنوا
 بالإسلام وعاصروا رسول الله ﷺ وصحبوه ، قد بلغ عندهم يسوم وفاته
 ١٢٤,٠٠٠ لكن الذين كانت لهم قدم في العلم والجهاد والصحة — من بين

(١) النحل : ٤٣ .

(٢) يوسف : ١٠٤ .

(٣) الأنبياء : ٢٠٧ .

(٤) الفرقان : ١ .

هذا الحمير - قد أحصاهم العلماء في كتب أعلام الصحابة ، فوجدناهم
- كما في [أسد الغابة في معرفة الصحابة] لابن الأثير [٥٥٥ -
٦٣٠ هـ - ١١٦٠ - ١٢٣٣ م] - أقل من ثمانية آلاف - ٧,٧٠٣ مع تفاوت
في الفقه وفي الرسوخ العلمي بين هذه النخبة و الصفوة التي تخرجت في
مدرسة النبوة ، على عهد رسول الله ﷺ الأمر الذي أكد - دائما وأبدا -
تمايز مستويات الخطاب الإسلامي بتمايز مستويات المخططين بهذا
الخطاب .

ثورة الإعلام المعاصر .. وإشاعة فتنة التكفير بين الجماهير

وإذا كانت ثورة الاتصالات المعاصرة قد مثلت نعمة كبرى من نعم الله في العلم الحديث ، عندما يسرت على الناس سبل المعرفة ، وأباحت ثمرات العقول الإنسانية لجماهير الأمم والشعوب من مختلف الحضارات والقارات والطبقات .. فإن لهذه الثورة طبقات عديدة ، منها — فيما يتعلق بموضوع بحثنا — نقل كثير من المسائل الجدلية والخلافية من مصادرها المتخصصة ، والمقصورة على العلماء المتخصصين إلى الكتب الجمهورية والمواقع المتعددة على " الشبكة العالمية للمعلومات " وهي كتب ومواقع " غدت " — في أحيان كثيرة — تفرى وتستخرج جمهوراً كبيراً من غير المتخصصين ، بل وغير المؤهلين للاطلاع على مسائل وقضايا ومجالات تزعزع ما لدى الجمهور من اليقين ، دون أن يكون هذا الجمهور قادراً على الحصول يقين بديل لذلك الذي زعزعه هذه الجدليات وما فيها من شبهات كما تنشر هذه الكتب الجمهورية ومواقع " الإنترنت " — وبعض الفضائيات — خلافاً للفرق وصراعات المذاهب وجدليات التيارات الفكرية بين العامة ، فتشعل نيران التعصب والتمزق والتشردم بين جماهير أمة الإسلام .

* لقد نقلت وسائل الإعلام والاتصال هذه كثيرًا من مسائل علم الكلام — الفلسفية — وأدلتها الجدلية — وهي أدلة لا تحقق طمسًا لثباتية ، لأنها ليست الأدلة القطعية ، نقلتها إلى عامة الجمهور وجمهور العلماء .

* وبعد أن كانت " الجدليات الكلامية " سلاحًا في مواجهة خصوم الإسلام ، وفي الدفاع بين المؤمنين والمعادين .. نقلت كثير من المسائل الإعلامية و" مواقع الإنترنت " .. التي أنشأتها مذاهب وشيخات إسلامية — نقلت هذه " الجدليات الكلامية " إلى العامة والجمهور .. حتى لقد رأينا أخطر القضايا — وهي قضية تكفير من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله — يشيع الحديث عنها والتدخل حولها والنقلاط بها بين من لا يحسن التفقه لفروع العبادات والمعاملات ، فضلًا عن التفقه لدقيق الكلام في أصول الاعتقادات !! .. بل لقد عدت " شهوة الشعب " فتا من الفسوف التي يتبارى في عرض فصوله المنقرغون له .. ويعنى لإيمان مشاهدته ، وتكريغ الغرائز الصراعية في متابعتها جمهور عريض من الناس !! ..

* فبعد أن كان المهاج الإسلامي يدعو إلى [إلجام العوام عن علم الكلام] .. وبعد أن كنا نقرأ في مصادر هذا العلم — على لسان حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، وغيره — :

" التحذير من تكفير الفرق ، وتطويل اللسان في أهل الإسلام ، وإن اختلفت طرقهم ، ما داموا متمسكين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، صادقين بها ، غير مناقضين لها.. لأن الكفر حكم شرعي لا يدرك إلا بمدرك شرعي ، من نص أو قياس على منصوص .. ولا يلزم كفر المؤمن ما داموا يلازمون قاتون التأويل .. وأصول الإيمان ثلاثة ، هي :

الإيمان بالله ، ورسوله ، وباليوم الآخر ، وما عداه فروع .. ولا تكفير
 فى الفروع أصلاً ، إلا فى مسألة واحدة وهى أن ينكر أصلاً دينياً علم من
 الرسول ﷺ بالتواتر .. فالتكفير فيه خطر ، والسكوت لا خطر فيه ..
 والخطأ فى ترل ألف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك مخجمة —
 [مصّة] — من دم مسلم .. والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على من
 يغلب عليهم الجهل .. وأكثر الخانضين فى هذا التكفير إنما يحركهم
 التعصب واتباع الهوى دون النظر للدين .. والعصمة للدم مستفادة من
 قول لا إله إلا الله قطعاً ، فلا يُدفع ذلك إلا بدليل قاطع .. (١) .

بعد أن كنا نقرأ هذا الكلام النفس لحجة الإسلام الغزالي .. ونقرأ —
 كذلك — للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ — ١٣٢٣ هـ — ١٨٤٩
 — ١٩٠٥ م] قوله :

“ أصل من أصول الأحكام فى الإسلام : البعد عن التكفير .. ولقد
 اشتهر بين المسلمين وعُرف من قواعد دينهم أنه إذا صدر قول من قائل
 يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حُمِلَ على
 الإيمان ، ولا يجوز جملة على الكفر ” (٢) .

بعد أن كنا نقرأ ذلك .. ونقف عند حدوده .. أصبح التكفير مادة من
 مواد الإعلام الجمهورى التى تشيع هذه ‘ الفاحشة الفكرية ‘ بين ملايين

(١) الغزالي [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٤٣ ، ١٤٤ . طبعة القاهرة — مكتبة صبيح
 — بدون تاريخ .

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٣٠٢ . دراسة وتحقيق : د. محمد
 عمارة . طبعة القاهرة — دار الشروق ١٩٩٣ م .

العوام .. حتى لقد تحولت بعض المنابر الإعلامية والمواقع على الشبكة العالمية للمعلومات إلى آليات لإشاعة الريب والشكوك وزعزعة اليقين والطمانينة لدى كثير من الناس .. ومن ثم وسيلة لإشاعة المزيد من التمزق والافتراق بين صفوف الأمة ، وجعل بأسها بينها شديدا ، الأمر الذي يوهن من بأسها في مواجهة الأعداء .. وذلك على العكس من الصورة التي كانت لهذه الأمة في صدر الإسلام : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » (١) .

.. « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » (٢) .

* وإذا كان الاختلاف سنة من سنن الله — فى كل عوالم الخلق .. ومبادئ الفكر — فإن اتفاق الأمة واجتماعها على الجوامع الخمسة المكونة للأرض المشتركة بين شعوبها وأجناسها وقومياتها وأوطانها ومذاهبها — وهى جوامع وحدة :

- ١- العقيدة ..
- ٢- والتشريعة ..
- ٣- والحضارة ..
- ٤- والأمة ..
- ٥- ودار الإسلام ..

(١) التفتح : ٢٩ .

(٢) الأفعال : ٦٣ .

هو الشرط لجعل الاختلاف - في الفروع ، كالفقه والسياسة مثلا - ظاهرة صحية ، تفتح أبواب السعة والرحمة والتيسير لجمهور المسلمين ..
أما الخلاف في الأصول - وخاصة في أصول الاعتقاد - فإنه هو الذي يفقد الأمة أساس وحدتها ، ويجعل تفرقها شيعا في أصول الدين والاعتقاد ..

وإذا نحن شئنا أن نضرب أمثلة على فاحشة الفكر التكفيري ، الذي تقذف به تيارات فكرية .. ومذاهب كلامية .. وطرق صوفية إلى صفحات منابرها الإعلامية ومواقعها على الشبكة العالمية للمعلومات .. ونشيعه بين جماهير لا علاقة لأغليبيتها الساحقة بموضوعات العقائد ومباحثها ..
فإننا واجدون الكثير .. والتحذير .. والشر المستطير ! ..
وعلى سبيل المثال :

التكفير الصوفي للوهابية

" فالطريقة العزمية " — وهى إحدى الطرق الصوفية الأكثر استنارة .. والأبعد عن الخرافات .. والأقرب إلى التجديد .. والتى أسسها الإمام المجدد الشيخ محمد ماضى أبو العزايم [١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م] — .. هذه " الطريقة " قد احترفت — فى الكثير من منابر إعلامها وثقافتها — مع الأسف الشديد — قذف السلفيين — وخاصة شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ هـ — ٧٢٨ هـ — ١٢٦٣ — ١٣٢٨ م] والشيخ محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ هـ — ١٢٠٦ هـ — ١٧٠٣ — ١٧٩٢ م] — والوهابية — بأشنع الاتهامات .. بما فى ذلك التكفير والإخراج من ملة الإسلام ! ..

ففى زعمهم — مثلاً — أن عقائد الوهابية :

▪ " عقائد غنوصية وهندوسية "

▪ " وهى مذهب إرهابى .. وتيار إلحادى خطير "

▪ " وهذا الرباء الوهابى لابد من اجتثاث تجربة الخبيثة "

▪ " وهذه الطائفة المقلدة لمحمد بن عبد الوهاب مجسمة مكفرة "

▪ " وهم مبتدعة خرافسون .. " (١) .

(١) انظر هذه الأحكام — وأمثاليها — فى كتاب [خطر تقسيم التوحيد على عقائد المسلمين]

ص ٣٦، ١٦٦، ١٦٥ طبعة القاهرة ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م .. وهو كتاب صدر ضمن سلسلة كتب

شهرية — صدر منها الآن أكثر من عشرين كتاباً — وجميعها موضوعة على شبكة الإنترنت .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية — والذي يعده علماء مدرسة الإحياء والتجديد
في عصرنا الحديث من أبرز مجددى الإسلام — فإنه — بنظر * الطريقة
العزمية * — وعلى صفحات إعلامها :

* * * المقصدى بأسلافه كلاب النار الحروريين — [الخوارج] — .. والذين
كفروا كثيرا من الصحابة .. وذلك عند ما حمل الآيات الواردة في الكفار
على المؤمنين * .

* * * 'بضاعته — من السب والقذف والتكفير — هي بضاعة سفلة الناس *
' * " وهو جاهل بأصول الدين جهلا مركبا .. وقد حكم على نفسه بالشرك
وعبادة غير الله وهو لا يشعر ، فصديق عليه المثل العربى : (رمستى
بدانها وانسلت) .. * .

* * * " وهو مكذب لنصوص كتاب الله تعالى وصريح سنة نبيه ﷺ .. ومركب
بذلك جرما عظيما .. وصاحب حكم فاجر .. وملبس وكذاب وجبان ..
وجاهل باللغة العربية وبأصول الدين .. " .

* * * " وهو الذى استبدل عقيدة التثليث بعقيدة التوحيد عندما اخترع (توحيد
الألوهية) فشاق به رسول الله ، ولتبع فيه غير سبيل المؤمنين ، زيادة
على افتراءه على الله فى كتابه العزيز .. لقد حاول ابن تيمية جاهدا أن
يدخل عقيدة التثليث فى عقيدة المسلمين ، فلما عجز عن ذلك اكتفى بتقسيم
التوحيد إلى قسمين هما توحيد الألوهية (الأب) وتوحيد الربوبية (الابن) ..
ولقد اختار ابن تيمية فى كيفية إدخال التثليث فى عقيدة المسلمين فلم يمكن
إلا من إدخال (الأب والابن) .. وجاء محمد بن عبد الوهاب — فى القرن
الثالث عشر الهجرى .. بإيعاز من ابن تيمية — بما عجز عنه ابن تيمية ،

ابتغاء الفتنة .. والمكذب لرب العالمين .. والخارج من الدين . والمذنب
بأصقيانه المنتخبين وخلفائهم الراشدين وأتباعهم الموفقين"!!^(١)
نلك نماذج - مجرد نماذج - من "الفحش الفكري" الذي قدمته - وتقديمه -
سلسلة من الكتب الجمهورية ، التي تصدر شهريا .. والتي صدر منها -
عند كتابة هذه الدراسة - أكثر من عشرين كتابا !! والتي توضع على
موقع " الطريقة العزمية " على الشبكة العالمية للمعلومات !! .. لنقدم
الفتنة الفكرية " لعامة المسلمين .. ولنقدم لأعداء الإسلام مادة غزيرة
وخطيرة في حربهم على الوهابية التي وضعها الأمريكيان ويضعونها -
بعد قارعة " سبتمبر ٢٠٠١ م - في مستوى الشيوعية .. ويسونها الفاشية
الإسلامية !! ويشنون عليها أشرس الحملات والتهجمات !! ..
لقد طلب مجمع البحوث الإسلامية " بالأزهر الشريف - منع هذه
الكتب من التداول ، درءاً للفتنة بين المسلمين .. لكن الشبكة العالمية
للمعلومات قد أتتحت - ونتيح - الاطلاع عليها لجمهور أوسع وأعرض
من جمهور القراء للكتاب ! ..

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧ ، ١٢٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ .

التكفير الوهابي للشيعة .. والصوفية .. والأشعرية

ولم تكن السلفية الوهابية — التي تعرضت وتعرض للتكفير من قبل بعض الصوفية .. ومن قبل الشيعة — .. لم تكن أقل حظاً من خصومها في تبادل تهمة التكفير .. والنقائض بها .. سواء كان ذلك في كتبها الجمهورية أو على مواقعها على الشبكة العالمية للمعلومات .. ففسى كل منابر الإعلام هذه نجد شيوع هذه " الفاحشة الفكرية " — تهمة التكفير ..

■ فالصوفية — بنظر هذه السلفية الوهابية — هم : " مشركو العصور المتأخرة .. وهم أشد كفراً من كفار قريش .. ذلك أن كفار قريش كانوا إذا ضالقت بهم الحيل ، وعلوموا عجز آلهتهم عن تحقيق مرادهم ، فزعوا إلى الله تعالى ، أما هؤلاء الصوفية — كفار الأزمنة المتأخرة — فشركتهم بالله يزداد في المصائب والمحن ، فيفزعون إلى آلهتهم : إلى القبور والأوثياء ، وينادونها بالغوث والمدد والأخذ باليد .. فهم أشد كفراً عن أبي جهل وأبي لهب .. !! "

■ " وأتباع هذه الطرق الصوفية : ملائدة .. وزنادقة .. وقبوريون .. ومنحرفون .. وأمرهم واضح في الضلال والبعد عن الصراط السوي " !!

* " والفقه والتصوف لا يجتمعان .. ومن كان فقيهاً صالح الحال ، ثم تصوف ، فإنه ينقلب إلى الأسوأ .. وذلك لأن التصوف هو الأخطبوط والسرطان الفتاك .. والبلاء الماحق .. الذى تشيع فيه التعاليم الوثنية ، وعلى رأسها عقيدة الاتحاد والحلول ووحدة الوجود " .

* " والصوفية : ردة جاهلية .. ونتاج وشئ صريح جاء من الهند أو من فارس .. وأصحاب هذه الردة الجاهلية إنما يعيدون الأضرحة والأولياء " .

* هكذا .. وبهذه الأحكام التكفيرية - ومثلها كثير - طُفحت صفحات المواقع السلفية الوهابية على الشبكة العالمية للمعلومات - حول التصوف والمتصوفين .. ! .

كذلك تكفر هذه السلفية الوهابية كل مذاهب الشيعة وفرقها :

" فمذهبهم هو مذهب الضلال .. وأعمالهم شركية ، كالاستغاثة بعلى والحسين - رضى الله عنهما - "

* كما تجتهد هذه السلفية الوهابية فى استخراج " الفواحش الفكرية الشيعية " ، التى تحكم بالكفر والردة والنعن على صحابة رسول الله ﷺ وعن جمهور أهل السنة .. استخراج هذه " الفواحش الفكرية " من بطون الكتب التراثية للشيعة ، لتعيد نشرها وإشاعتها بين العامة والجمهور !! ..

بل ولا تنسى هذه السلفية الوهابية أن تعمم " فواحشها الفكرية : على
الأشعرية — الذين يمثلون ٩٩% من جمهور أهل السنة والجماعة " —
وذلك عندما تحكم على عقيدتهم ..
" بالفساد .. والتبذير .. والتفسيق " وأحيانا " بالكفر .. أو ما يشبه
الكفر " !! ..
وتنتشر ذلك " الفحش الفكرى " على صفحات مواقعها بالشبكة العالمية
للمعلومات " .

وهكذا تحولت الكتب الجمهورية ، ومواقع الإنترنت — عند هذه
السلفية الوهابية — إلى ساحة يتقاذفون فيها مع خصومهم هذه " الفواحش
الفكرية " ، التى تمزق وحدة الأمة الإسلامية .. وتوهن عزمها
ومنعها فى مواجهة أعدائها — الذين تجاوزوا خلافاتهم التاريخية ..
وتآقضاتهم الدينية .. وتحالفوا جميعا لاجتياح عالم الإسلام وأمة الإسلام
وبين الإسلام !! ..

النزعة التكفيرية عند الشيعة

وإذا كانت الشيعة — بفرقها المختلفة : المعتزلون منهم — كالأزيدية — والمتوسطون منهم — كالإثنى عشرية — .. والغلاة منهم — كالإسماعيلية والنصيرية .. والدروز — إنما يمثلون أقل من ١٠% من تعداد المسلمين .. بينما يمثل أهل السنة والجماعة ٩٠% من تعداد الأمة .. فإن وقوع الشيعة في مستنقع التكفير لأهل السنة قد شمل جمهورهم — باستثناء الزيدية — .. بينما لم يقع في مستنقع التكفير للشيعة — من أهل السنة — سوى قطاع من السلفيين ، لا يتجاوز عددهم الملايين التي تعد على أصابع اليدين .

بل إن تراث الشيعة ، في المصادر المعتمدة ، التي تدرس حتى اليوم في الحوزات العلمية ، والتي تكون العقل الفقهي للمراجع الشيعية الذين يقودون جماهير المقلدين .. إنما يعم — هذا التراث — " فاحشة التكفير " لتشمل جمهور صحابة رسول الله ﷺ وأزواجه .. أي أنهم يعممون هذه " الفاحشة " على جمهور الأمة ، بأجيالها المتتابعة ، منذ صدر الإسلام وحتى هذه اللحظات !!

* لقد طفحت " الأحاديث " التي نسبها إلى أئمتهم ، وامتلأت مصادرهم في العقائد .. وأصول الدين .. والتفسير للقرآن الكريم .. وكتب

الرجال .. والتاريخ .. بالروايات التي تعمم فاحشة التكفير والارتداد واللعن
لجمهور الصحابة - رضوان الله عليهم - وجمهور أمة الإسلام .
ووضعت هذه " الفواحش الفكرية " على العديد من المواقع على
الشبكة العالمية للمعلومات .. سواء من قبل متعصبى الشيعة ، أو من قبل
خصومهم السلفيين !!

ومن هذه " الفواحش الفكرية التكفيرية " - على سبيل المثال - :
* الحكم بالكفر والردة على أبى بكر الصديق .. وعمر الفاروق ..
وعثمان ذى النورين - رضى الله عنهم - .. فلقد جاء فى (الأصول من
الكافى) للكلينى (٣٢٩هـ / ٩٤١م) (١) :

" عن أبى عبد الله - جعفر الصادق - أن الآية ﴿ إن الذين كفروا
بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا ﴾ (٢) . قد نزلت فى أبى بكر ، وعمر ،
وعثمان ، وكذلك آية : ﴿ إن الذين ارتدوا على أهدبارهم من بعد ما تبين
لهم ﴾ (٣) . وأنهم (آمنوا بالنبي فى أول الأمر ، وكفروا حين عرضت
عليهم ولاية على بن أبى طالب .. وأنهم ارتدوا عن الإيمان فى ترك ولاية
على) !! (٤) .

(١) هذا الكتاب - عند الشيعة الإثني عشرية - بمثابة (صحيح البخارى) عند أهل السنة .. والكلينى هو أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكلينى الرازى - المتوفى سنة ٣٢٩هـ .

(٢) آل عمران : ٩٠ .

(٣) محمد : ٢٥ .

(٤) (الكافى) ج ١ ، ص ٤٢٠ . طبعة دار الكتب الإسلامية ، بيروت .

* كما ينسب الكليني - في (الروضة من الكافي) - إلى أبي عبد الله - جعفر الصادق - في تفسير الآية : « ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » (١) . أنهما أبو بكر وعمر !! (٢) .

* أما المجلسي - محمد باقر - صاحب (مرآة العقول) - فإنه يقول في شرحه للكافي ، ورواية الكليني هذه - ج ٢٦ ، ص ٤٨٨ :
" إن الجن المذكور في الآية هو عمر بن الخطاب ، سمي بذلك لأنه كان شيطاناً ، إما لأنه كان شرك شيطان لكونه ولد زنى ، أو لأنه في المكر والخديعة كالشيطان !! "

* وينسب الكليني إلى أبي عبد الله - جعفر الصادق - : أن هؤلاء الخلفاء الثلاثة - أبو بكر وعمر وعثمان . (لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب عظيم) !! (٣) .

* ويقول المجلسي في (العقائد) ص ٥٨ :
" إن مما علا من ضروريات دين الشيعة الإمامية : البراءة من أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية " ، كما يصفهم - في كتابه (حق اليقين) ص ٥١٩ - بأنهم " الأصنام الأربعة " !! .. وأنهم وأتباعهم وأشياعهم " شر خلق الله على وجه الأرض " !!

(١) فصلت : ٢٩ .

(٢) الكليني (الروضة من الكافي) ج ٨ ، ص ٣٣٤ .

(٣) (الكافي) ج ١ ، ص ٣٧٣ .

كما يروى - في كتابه (بحار الأنوار) ج ٦٩ ، ص ١٣٧ - عن
مولي لعلي بن الحسين ، قوله في أبي بكر وعمر : أنهما " كافرين ، كافر
من أحبهما " !! ..

* أما الكركي - في كتابه (نفحات اللاهوت في لعن الجبت
والطاغوت) ص ١٤٠ - فيقول عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : " إن من لم يجد
في قلبه عداوة لعثمان ، ولم يستحل عرضه ، ولم يعتقد كفره ، فهو عدو له
ورسوله ، كافر بما أنزل الله " !!

* بل لقد استحب الشيعة الإمامية - وبعضهم أوجب - لعن أبي بكر
وعمر وعثمان ومعاوية .. ولعن عائشة وحفصة .. وعند - زوج
أبي سفيان - وأم الحكم - أخت معاوية - .. لعنهم بأسمائهم عقب
كل صلاة !!

وذكر الحر العاملي - في كتابه (وسائل الشيعة) ج ٢ ، ص ١٠٣٧
بإحدى عتوانه : (استحباب لعن أعداء الدين عقوب الصلاة بأسمائهم) ..
ونسب ذلك إلى أبي عبد الله - جعفر الصادق - زاعماً أنه " كان يلعن
بهر كل مكتوبة أربعة من الرجال وأربعاً من النساء " !!

* وذكر المرعشي - في كتابه (إخفاق الحق) ج ١ ، ص ٩٧ ،
وصف أبي بكر وعمر " بصنمي قريش " .. وأثبت نص الدعاء عليهما !!
وهو نص طويل ، تطبعه وتذيعه دوائر شيعية .. وتضعه على مواقع
الإنترنت .. فتشيع ما فيه من الفواحش الفكرية بين العامة ، مسلمين وغير

(١) لابن المطهر الحلي كتاب (الأئمة) يورد فيه ألفي دليل على وجوب لعن أبي بكر
وعمر - رضي الله عنهما وأرضاهما - !! ..

مسلمين !! .. وتنافسها في إشاعة هذا " ادعاء " السفينة الوهابية ، لتفصح
الشيعة بين الناس !!

* وعلى الرغم من أن الإمام علي بن أبي طالب — كرم الله
وجهه — قد شهد بالإيمان والأخوة في الدين حتى للذين حاربوه وقتلوه ،
لأن الخلاف والقتال إنما كان في السياسة والخلافة — وهي من الأمور
التي يؤجر حتى المخطئ فيها .. ولم يكن الخلاف في أصول الاعتقاد
الديني فقال كرم الله وجهه عندما سئل عن رأيه في أهل الشام — معاوية
ابن أبي سفيان وأنصاره — بيان قمة الصراع بينهما في موقعة " صفين "

(٣٧هـ/٦٥٧م) :

" لقد التقينا ، وربنا واحد ، ونبينا واحد ، ودعوتنا في الإسلام
واحدة ، ولا تستزيدهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستريدوننا ،
والأمر واحد ، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ، ونحن منه براء ..
إننا — والله — ما قاتلنا أهل الشام على ما توهم هؤلاء — (الخوارج)
من التكفير والافتراق في الدين ، وما قاتلناهم إلا لنردهم إلى الجماعة
— (أي الجماعة السياسية) — وإنهم لإخواننا في الدين ، قبلتنا واحدة ،
ورأينا أننا على الحق دونهم " (١) .

(١) الشافعي : (التمهيد في الرد على الملحدة والمعتزلة والرافضة والخوارج والمعتزلة)
ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، تحقيق : محمود الخضيرى ، د . محمد عبد الهادي أبو ريدة . طبعة
القاهرة ، سنة ١٩٤٧م ، وابن أبي الحديد : (شرح نهج البلاغة) ج ١٧ ، ص ١٤١ .
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٩م .

على الرغم من ذلك ، ينقل الشيخ المفيد - في كتابه (أوائل المقالات) ص ٤٥ - اتفاق الإمامية - على تكفير الذين قاتلوا علياً .. ويصفهم " بالناكثين والقاسطين والكفار والضلال الملعونين المخالفين في النار " !! * ويحكم شيخ الشيعة جعفر مرتضى - في كتابه (حديث الإفك)

ص ١٧ على أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بالكفر !! ويقول عنها يوسف البحراني - في كتابه (الشهاب الثاقب في بيان معنى المناصب) ص ٢٣٦ : " إنها ارتدت بعد موت النبي ﷺ كما ارتد ذلك النجم الغفير المجزوم بإيمانهم سابقاً .. وأنها مستحقة للنار واللعن والعذاب ، وأن ذلك من مستلزم مذهب الشيعة وأحقية أئمتهم الإثني عشر " !!

أما النجفي القمي - محمد طاهر بن محمد حسين الشيرازي النجفي القمي - المتوفى سنة ١٠٩٨م - فيقول عن السيدة عائشة - رضي الله عنها - في كتابه (الأربعين في إمامة الأئمة الطاهرين) ص ٦١٥ ، ٦١٦ : " ومما يدل على إمامة أئمتنا الإثني عشر ، أن عائشة كافرة مستحقة للنار ، وهو مستلزم لحقية مذهبنا وحقية أئمتنا الإثني عشر ، لأن كل من قال بخلافة الثلاثة - (أبي بكر ، وعمر ، وعثمان) - اعتقد إيمانها وتعظيمها وتكريمها ، وكل من قال بإمامة الإثني عشر . قال باستحقاقها اللعن والعذاب " !!

* ونقد ذهب كبار علماء الشيعة الإثني عشرية إلى تعميم الحكم بالكفر والشرك على كل من عداهم .. فالمجاسي - في كتابه (بحار الأنوار) ج ٢٣ ص ٣٩٠ - يقول :

* أعلم أن إطلاق لفظ الشرك والكفر على من لم يعتقد إمامة أمير المؤمنين والأئمة من ولده .. يدل على أنهم مخلدون في النار * !
ويؤكد على ذلك شيخهم عبد الله المامقاني - في كتابه (تنقيح المقال) ج ١ ص ٢٠٨ - فيقول :

" وغاية ما يستفاد من الأخبار جريان حكم الكافر والمشرك في الآخرة على كل من لم يكن اثني عشرياً * !

* وحتى الخميني - في كتابه (الأربعين) ص ٥١١-٥١٣ ، يجعل قبول الإيمان بالله ورسوله مقصوراً على الشيعة المؤمنين بالأئمة الإثني عشر دون عداهم !

وكذلك الحال - عنده في قبول الأعمال .. فلقد عقد في هذا الكتاب فصلاً - ص ٥١٢ - جعل عنوانه : (فصل في بيان أن ولاية أهل البيت شرط لقبول الأعمال) !! .. فكان الاختلاف معهم حول أي من أئمتهم الإثني عشر شرك محبط للإيمان .. ومحبط للأعمال الصالحة !! ..

* بل وبلغ بهم الأمر حد إعلان أن المفارقة بينهم وبين سائر من عداهم إنما تشمل المفارقة في الألوهية والنبوة !! .. فذكر شيخهم نعمة الله الجزائري - المتوفى سنة ١٢١٢هـ - في كتابه (الأنوار النعمانية) ج ٢ ، ص ٢٧٩ (١) :

" إننا لم نجتمع معهم على إله ، ولا نبي ، ولا علي إمام ، وذلك أنهم يقولون : إن ربهم هو الذي كان محمداً نبيّه ، وخليفته أبو بكر ، ونحن

(١) طبعة مؤسسة الأعلى - بيروت .

لا نقول بهذا الرب ولا بذلك النبي ، بل نقول : إن السرب الذى خليفته *
أبو بكر ليس ربنا ، ولا ذلك النبي نبينا " !! ..

* ويروى الكليني هذا الحكم القاطع بكفر كل من عدا الشيعة
الإثنى عشرية .. يرويه - فى (الكافى) ج ١ ، ص ٢٢٣ - عن الرضا ،
الذى يقول :

" إن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم ، أخذ الله علينا وعليهم
اليمين ، يردون مورثنا ويدخلون مدخلنا ، ليس على ملة الإسلام غيرنا
وغيرهم إلى يوم القيامة " !!

* وإذا كانوا يطلقون على كل من عدا فرقته - الإثنى عشرية -
صفة "النواصب" - أى الذين ناصبوا أئمتهم العداء - .. فإن "النواصب"
عندهم - كما يقول نعمة الله الجزائرى - فى كتابه (الأنسوار النعمانية)
ج ٢ ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ - : " نجس ، وأنه شر من اليهودى والنصرانى
والمجوسى ، وأنه كافر نجس بإجماع علماء الإمامية " !!
وبعبارة شيخهم الكبير ومرجعهم محمد الشيرازى - فى موسوعته
(الفقه) ج ٤ ، ص ٢٦٩ :

" فإن من جحد إماماً من الأئمة الإثنى عشر - بمن فى ذلك سائر
أقسام الشيعة غير الإثنى عشرية - هم " كمن قال إن الله ثالث ثلاثة " !!
* وحتى الإمام أبو القاسم الخوئى - وهو الذى توفى من سنوات
قليلة - فإنه يقول - فى كتابه (مصباح الفقاهة) ج ٢ ، ص ١١ :
" إنه ثبت بالروايات والأدعية والزيارات جواز لعن المخالفين ،
ووجوب البراءة منهم ، وإكثار السب عليهم ، واتهامهم ، والتوقيعة فيهم

— أى غيبتهم — لأنهم من أهل البدع والريب ، بل لا شبهة فى كفرهم ،
لأن إنكار الولاية والأئمة حتى الواحد منهم والاعتقاد بخلافه غيرهم ..
يوجب الكفر والزندقة ، وتدل عليه الأخبار المتواترة الظاهرة فى كفر
منكر الولاية " !!

" وإذا كان جمهور أهل السنة ، هم — فى العقائد — على المذهب
الأشعرى — نسبة إلى إمام أهل السنة والجماعة أبو الحسن الأشعرى
(٢٦٠ — ٣٢٤هـ / ٨٧٤ — ٩٣٦م) — فإن الأشعرية — بنظر الشيعة الإثنى
عشرية — كفار ، بل وأسوأ من المشركين والنصارى ! .. وبعبارة الشيخ
نعمة الله الجزائري — فى كتابه (الأنوار النعمانية) ج ٢ ، ص ٢٧٨ — :
" فالأشاعرة لم يعرفوا ربهم بوجه صحيح ، بل عرفوه بوجه غير
صحيح ، فلا فرق بين معرفتهم هذه وبين معرفة باقى الكفار .. فالأشاعرة
ومتابعوهم أسوأ حالاً فى باب معرفة الصانع من المشركين والنصارى ..
ولقد تباينا وتفصلنا عنهم فى باب الربوبية ، فربنا من تفرد بالقدم والأزل ،
وربهم من كان شركاؤه فى القدم ثمانية " 11

" بل لقد صعد بعض علماء الشيعة بالمفارقة والعداء والتكفير
من نطاق أصول الاعتقاد إلى نطاق " العنصرية " أيضاً .. فنذكر
الشيخ المفيد — فى كتابه (الأمالى) ص ١٦٩ — :
" أنه ليس أحد طاهر المولد ، وليس أحد على ملة الإسلام
إلا الشيعة " !! ..

هذه نماذج وأمثلة — مجرد نماذج وأمثلة — لهذا " الفحش الفكرى " ،
الذى أثمره التعصب الطائفى والضلال المذهبى ضد جمهور أمة الإسلام ،
الذين يعبدون الله وحده .. ويؤمنون بنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين — محمد
بن عبد الله ﷺ — ويحبون آل بيته ، الذين أذهب الله عنهم الرجس
وطهرهم تطهيراً — بنص القرآن الكريم : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم
الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيراً ﴾ (١) .

وإذا كان هذا " الفحش الفكرى " قد ظل لقرون طويلة وقفساً على
التدريس فى الحوزات العلمية الشيعية .. وعلى الباحثين فى أصول المذهب
الشيعى وعقائده .. وتخفيه " النقية " فى أغلب الأحيان عن الثقافة العامة
لشيعته .. فإن ثورة وسائل الاتصال الحديثة — بما فى ذلك " مواقع "
الشبكة العالمية للمعلومات — قد أشاعت هذا " الفحش الفكرى " بين العامة
والجمهور ، فأشعلت نيران الفتنة بين جماهير الأمة ، فى وقت تجتاح فيه
" الصليبية — الصهيونية " أمة الإسلام وعالمه وحضارته ، دون تمييز
بين الطوائف والمذاهب والأقطار والقوميات فى عالم الإسلام ! ..

بل إن المغارقات الغربية قد جعلت نقرأ من السلفيين — فى حربهم
ضد الشيعة .. ومحاولتهم فضح نزعتهم التكفيرية — يسهمون فى إشاعة
هذا " الفحش الفكرى " ، وذلك عندما ينقلونه من بطون الكتب التراثية

المتخصصة إلى الكتب الجمهورية ، ومواقع الشبكة العالمية للمعلومات !! (١) .

الأمر الذي يستدعي وقفة جادة تواجه بها هذا الخطر الذي يشعل نيران التكفير في صفوف الأمة .. وينشر لهيب هذه النيران بين العامة والجماهير .

* * *

إن المجتمع الشيعي - في الحوزات والجامعات ومؤسسات البحث والدراسة - يزخر بالعقلاء من الفقهاء والعلماء .. ونحن - من موقع الحب والتقدير والإجلال - نتوجه إلى هؤلاء العلماء العقلاء .. فنقول لهم :

إن الذين أزالوا طاعوت الفرس والروم - قبل أربعة عشر قرناً - وفتحوا أبواب كل انبلاء أمام الإسلام هم الصحابة ، الذين صنعوا هذا المجد التاريخي تحت قيادة أبي بكر الصديق (٥١ ق.هـ - ١٣هـ / ٥٧٣ - ٦٣٤م) والفاروق عمر بن الخطاب (٤٠ ق.هـ - ٢٣هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤م) .. أي أن هؤلاء هم السبب - الذي يسره الله - لوصول الإسلام إلينا وإليكم .. ولولاهم فلربما كنتم تعبدون النار أو الصليبان أو العجل أبيس حتى هذه اللحظات !!

(١) انظر - على سبيل المثال - كتاب (الشيعية الإثني عشرية وتكفيرهم لعموم المسلمين) تأليف عبد الله بن محمد السلفي . طبعة مكتبة الرضوان السلفية - كوم حمادة - البحيرة - مصر سنة ٢٠٠٤م .. وكذلك العنبر من المواقع السلفية على شبكة الإنترنت * .

فيل يجوز - في العقل والمنطق والحكمة - أن تكفر وتلعن من كان
المنيب في نعمة الإسلام التي هي أعظم نعم الله علينا ؟

* لقد لقيت في طهران - في أولى زيارتي لها - واحدا من نشطاء
الشيعة ، الذين تجاوزوا - بالعقلانية والاستنارة - هذا التراث المظلم الذي
يمزق وحدة الأمة الإسلامية .. وحدتي - يومئذ - عن لون من الثقافة
الشيعية " الشائعة في صفوف عوام الشيعة .. حدثني عن والدته ، التي
تتقرب إلى الله - سبحانه وتعالى - عفا كل صلاة ، فدعو - علي
مسبحتها - فنقول : " اللهم العن أبا بكر ثم عمر " !!! ..

وإذا كنت قد شعرت بالحزن الشديد - يومئذ - لشيوع مثل هذا
" الفحش الفكري " بين العامة من الشيعة .. ولجعل هذا " الفحش الفكري "
دينا وقربايات يتقرب بها البعض إلى الله - سبحانه وتعالى - ! فإن الحزن
الأشد قد أصابني عندما علمت أن هذا " الفحش الفكري " ليس مجرد
تعصب أعشى يمارسه العامة .. وإنما هو " فكر مذهبي " تنتقله المصادر
التراثية الشيعية التي تدرس في الحوزات العلمية ، وتتشكل به وتصطبغ
عقول الفقهاء والعلماء والمراجع التي يقددها العوام .. بل وتطبعه
وتوزعه .. بالمجان - نور نشر ومكتبات .. ويضعه البعض - من
الشيعة أو من خصومهم - على مواقع الشبكة العالمية للمعلومات .. ليضيع
بين العامة والجهال ! ..

* وها هو المرعشي - القاضي ضياء الدين نور الله التستري
(٩٥٦-١٠١٩ هـ/١٥٤٩-١٦١٠م) يورد في كتابه (إحقاق الحق ورياق

الباطل) - ج ١ ، ص ٩٧ - دعاءهم على أبي بكر الصديق والفاروق
عمر بن الخطاب ، الذي يزعمون أنهم يقتربون به إلى الله ! .. ونصه :
' بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم صل على محمد وآل محمد . اللهم
العن صنمى قریش وجبتيهما وظاغوتيهما ، وإفكيهما وابفتيهما^(١) . الذين
خالفوا أمرك ، وأنكروا وحيتك ، وجحدوا إبعامتك ، وعصوا رسولاك ، وقتلوا
دينك ، وحرقوا كتابك ، وعطلوا أحكامك ، وأبطلوا فرائضك ، وأخذوا قس
أيمانك ، وعاديا أوليائك ، وواليا أعدائك ، وخربا بلادك . وأفسدا عبادك .
اللهم العنهما ، وأتباعهما وأوليائهما ، وأسباعهما ، ومحبيهما^(٢) .
فك خربا بيت النبوة ، وردما بابيه ، ونقضا سقفه ، وألحقا بماءه بارضه
وعاليه بسافقه وظاهره بباطنه ، واستأصلا أهله ، وأبادا أنصاره . وقتلا
أطفاله ، وأخليا منيره من وصيته ووارث علمه ، وجحدوا إمامته ، وأتسركا
بريبتها ، فعضم ذبيهما وخلاهما فى سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقى
ولا تذر .

اللهم العنهم بعدد كل منكر أتوه ، وحق أخفوه ، ومنبر علوه ،
ومؤمن أرجأوه ، وموافق أولوه ، وولى أتوه ، وطريد أولوه ، وصديق
طردوه ، وكافر نصروه ، وإمام قهروه ، وفرض غيروه ، وأثر أنكروه ،
وشر أثروه ، ودم أراقوه ، وخبر بثروه ، وحكم قلبوه ، وكفر أبدعوه ،
وكذب دلسوه ، وإرث غصبوه ، وفقى اقتطعوه ، وسحت أكلوه ، وخمس

(١) أى أسهات المؤمنين عائشة وحفصة - رضى الله عنهما - .

(٢) أى أن اللعن والدعاء ليس فقط على أبى بكر وعمر ، وإنما على جمهور الأمة

الإسلامية - ٩٠% من المسلمين - ١١ ..

استحلوه ، وباطل أسبوه ، وجور بسطوه ، وظلم نشره ، ووعد أخلفوه ، وعهد نقضوه ، وحلال حرّموه ، وحرام حلّوه ، ونفاق أسروه ، وعذر أضروه ، وبطن ففّوه ، وضلع كسّروه (دقّوه) ، وجنين أسقطوه ، وصك مزقوه ، وشمل بدّوه ، وعزّيز أنلّوه ، وذليل أعزّوه ، وحقّ منعوه ، وإمام خالفوه .

اللهم العنهما بعدد كل آية حرّفوها ، وفريضة تركوها ، وسنة غيروها ، وأحكام عطّلوها ، ورسوم منعوها ، وأرحام قطعوها ، وشهادات كتموها ، ووصية ضيّعوها ، وأيمان نكّثوها ، ودعوى أبطلوها ، وبينة أنكروها ، وحيلة أهدّثوها ، وخيانة أوردوها ، وعقبة ارتقوها ، ودياب دحرجوها ، وأزياف لزموها ، وأمانات خاتّوها .

اللهم العنهما في مكنون السر ، وظاهر العلانية لعناً كثيراً دائماً أبداً سرمداً لا انقطاع لأمداه ، ولا نفاذ لعدده ، لعنا يغشوا أوله ولا يروح آخره ، لهم ولأعوانهم وأنصارهم ، وسحبهم ومواليهم ، والمائلين إليهم ، والناهضين بأجنتهم ، والمقتدين بكلامهم ، والمصدقين بأحكامهم .

(قل أربع مرات) : الله عذبهم عذاباً يستغيث منه أهل النار ، آمين رب العالمين .

(ثم تقول أربع مرات) اللهم العنهم جميعاً .

اللهم صل على محمد وآل محمد ، وأغنني بحلالك عن حرامك ، وأغنني من الفقر . ربّ إني أسأت وظلمت نفسي ، واعترفت بذنوبي ، وما أنا بين يديك فخذ لنفسك رضاها . لك العبي ، لا أعود ، فإن عشت

فعد على بالمغفرة والعفو لك بفضلك وجودك ومغفرتك وكرمك يا أرحم
الراحمين .

وصل الله على سيد المرسلين وخاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين
برحمتك يا أرحم الراحمين " (١) .

فهل هذا — " الفحش الفكرى " — معقول ؟!

" وهل هذا يليق بمن يتحدثون عن وحدة الأمة الإسلامية فى مواجهة '
 " انصليبية — الصهيونية " التى تعصف بكل ما هو إسلامى ، دون تمييز
 بين مذاهب المسلمين ؟!

وهل نظل — هكذا — عاجزين — ولا أقول راضين — أمام هذه
 " الألغام المتفجرة " ، التى تستخدم صباح مساء فى كسر شوكة الوحدة
 الإسلامية ؟!

إننا نتوجه بهذه التساؤلات إلى العلماء العقلاء الذين تمثلئ
 بهم فضاءات الشيعة وجامعاتها .. ولا تخلو منهم الحوزات العلمية
 التى يتخرج منها هؤلاء العلماء ! ..

(١) (التبصرة الإثنية عشرية وتكفيرهم لعموم المسلمين) ص ٤٣-٤٥ .

حقائق .. وأوهام

عندما قامت الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩م ، بقيادة آية الله الخميني — الذي حرك الجماهير الشعبية الإيرانية على نحو غير مسبوق في التاريخ الإيراني — ، بهزت هذه الثورة جماهير الأمة الإسلامية ، فتعاطفت معها ، ومنحتها التأييد والولاء ، على الرغم من الموقف المعادي لهذه الثورة من قبل الاستعمار والصهيونية والكثيرين من الحكام في وطن العروبة وعالم الإسلام .

واليوم ، يتكرر ذات المشهد — من التأييد الشعبي الإسلامي — إزاء الصمود البطولي الذي قام به المجاهدون من شباب "حزب الله" — الشيعي — في لبنان ، أولئك الذين لقنوا الجيش الصهيوني — ومن ورائه أمريكا — درساً سيكون له ما بعده في سجل الصراع التاريخي بين أمّة الإسلام وبين الصليبية الغربية وريبتها الصهيونية — إن شاء الله — ..

* وكما حدث بالأمس — عندما قامت الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩م — عندما حاول البعض ربط الثورة والثورية بالمذهب الشيعي ، وبتقافة الجهاد والاستشهاد لدى هذا المذهب ، للقيام بتحويل بعض انشباب عن المذهب السنّي إلى التشيع .. تتكرر ذات الأفكار وذات المحاولات ، لإقناع بعض الشباب ، المنبهر بأداء المقاومة الشيعية في لبنان بالتحول عن السنة إلى

الشبيعة ، بدعوى الارتباط بين الثورية والروح الجهادية وبين الشيعة كمذهب وثقافة واتجاه ..

* وللإجابة على التساؤلات التي طرحها ويطرحها بعض الشباب حول هذا الموضوع — الهام والحساس — نقدم هذه الحقائق الفكرية والتاريخية — بل والمعاصرة — التي ترسم الصورة الصادقة ، من جميع جوانبها وزواياها ، أمام عقول الشباب .. وذلك إغاثة لهم على التفكير الموضوعي السليم .. وهي حقائق نقدمها في عدد من النقاط :

(١)

يجب أن نميز بين الإعجاب بالمقاومة التي تقوم بها حركات التحرر الوطني والقومي والإسلامي ، وبين المذاهب والعقائد التي تعتنقها هذه الحركات .. فكل شعوب الدنيا — وعلى مر التاريخ .. ورغم تعدد دياناتها ومذاهبها — قد خاضت غمار الثورات .. وكثيرون منها قد مارسوا البطولات في مواجهة الغزاة والمستبدين .. ومن الخطأ البئيس أن يقوِّنا الإعجاب بثورات هذه الشعوب وبطولاتها إلى الإعجاب بدياناتها وعقائدها ومذاهبها ، فننحول عن عقائدنا ومذاهبنا إلى هذه العقائد والمذاهب التي تؤمن بها تلك الشعوب ..

* لقد انبهر العالم كله ببطولات الجيش السوفييتي في معركة " ستالينجراد " ، التي فتحت الطريق أمام انهيار النازية والفاشية — في الحرب العالمية الثانية — .. وذلك دون أن ينبهر أحد بالعقيدة القتالية

للجيش الأحمر ، أو ينبغي بماركسية قائد ذلك الجيش " جوزيف ستالين " (١٨٧٩-١٩٥٣م) !

* ولقد أيننا جميعاً المقاومة الفيتنامية الباسلة ، وأعجبنا بطولات الشعب الفيتنامي ضد الاستعمار الفرنسي والأمريكي .. لكننا لم نمنح هذا الإعجاب للبوذية الفيتنامية ، ولا لماركسية الحزب الشيوعي الفيتنامي ، الذي قاد هذا النضال وسطر تلك البطولات .. ومن ثم لم يتحول أحد منا إلى البوذية ولا إلى الشيوعية ! ..

* ولقد وقف أحرار العالم — من كل الديانات والمذاهب والفلسفات — مع المقاومة البطولية للشعب الفرنسي ضد الاحتلال النازي — إبان الحرب العالمية الثانية — وهي المقاومة التي قادها الشيوعيون الفرنسيون ، وانخرط فيها الوجوديون الفرنسيون .. وذلك دون أن يمتد هذا التأييد العالمي للشيوعية .. ولا للوجودية ، كمذاهب يعتنقها هؤلاء المقاومون 1..

* واليوم يمنح أحرار العالم إعجابهم وتقديرهم لتيارات اليسار فـي أمريكا الوسطى والجنوبية — من " كاسترو " — في كوبا — إلى " تشايفز " — في فنزويلا — .. هذا اليسار الذي يقاوم الطاغوت الإمبريالي الأمريكي وذلك دون أن يعنى هذا أن نتحول إلى المذاهب اليسارية التي يمتدح بها هؤلاء المقاومون !..

* بل ولقد سبق لجماعير عريضة من شباب العالم أن فتنت بالمقاومة الأسطورية " لجيفارا " .. لكنها لم تفتن " بالماركسية .. اللينينية .. الماوية " التي حركت هذا البطل الأسطوري " جيفارا " !

وهكذا يستبين لنا أن الربط العضوي والحتمي بين " المقاومة " وبين
 " مذهب " أهلها .. ومن ثم الربط بين الإعجاب بهذه المقاومة وبين التحول
 إلى مذاهب أهلها .. هو وهم كبير وخطير ، يروج له بعض الخبيثاء قسسى
 أوساط الذين لا يعلمون ولا يفقهون ! ..

(٢)

ثم .. من قال إن التشيع قد ارتبط — تاريخياً — بالثورة والمقاومة
 لحكام الجور .. وأن أهل السنة قد كانوا مستسلمين ، أو أقل مقاومة من
 الشيعة عبر تاريخ الإسلام ؟ ..

إن هذه المقولة — التي يروج لها الخبيثاء فى صفوف الجهلاء — هى
 الأخرى وهم من الأوهام .. بل ومضادة للحقائق الصلبة التى امتلأت بها
 صفحات التاريخ ..

* لقد فتح المسلمون الأوائل فى ثمانين عاماً أوسع مما فتح الرومان
 فى ثمانية قرون .. وأزالوا القوى العظمى التى استعمرت الشرق وقهرته
 — دينياً .. وثقافياً .. ولغوياً .. وحضارياً — لأكثر من عشرة قرون — من
 الإسكندر الأكبر (٣٥٦ — ٣٢٤ ق.م) فى القرن الرابع قبل الميلاد — إلى
 " هرقل " (٦١٠ — ٦٤١ م) — فى القرن السابع للميلاد .

وبهذا الفتح الإسلامى المبين ، فتح هؤلاء الفاتحون الطريق أمام
 انتشار الإسلام من المغرب — غرباً — إلى الصين — شرقاً — ومن حوض
 نهر الفولجا — شمالاً — إلى جنوبى خط الاستواء ..

وجميع هؤلاء الفاتحين — من الخلفاء والصحابه والمجاهدين —
 يتولاهم أهل السنة ، ويصلّون ويسلمون عليهم ، ويعتبرونهم الأئمة والقادة
 الذين أنقذوا الدين ونشروه ، وأمسوا الدولة ومدروا لها الحدود .. وأنتم
 الله على أيديهم هذه النعمة التي نعيش فيها وعليها حتى يومنا هذا .. بل
 وكانوا هم المؤسسين لقواعد الحضارة الإسلامية التي أنارت العالمين ..
 بينما الشيعة — باستثناء الزيدية — قد حرموا أنفسهم — مع شديد
 الأسف — من هذا الرصيد التاريخي المجيد ، وذلك عندما حكموا على
 جمهور هذا الجيل الفريد — من الصحابة — بالكفر والردة .. بل وأوجبوا
 لعنهم والبراءة منهم — والعياذ بالله — ! ..
 لذلك ، كانت هذه الفتوحات وهذه البطولات ، التي لولاها لما دخلت
 شعوبنا في دين الإسلام ، كانت رصيذاً للتاريخ السني في ميادين الفتوحات
 والبطولات والتحرير للأرض وللضمير .. ولا أثر لها في تاريخ الشيعة
 والشيعة — مع الأسف الشديد — ! ..

(٣)

وعندما جاء الغرب الصليبي ليختطف الشرق من التحرير الإسلامي
 — إبان الحروب الصليبية (٤٨٩ — ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ — ١٢٩١ م) — رأينا
 يغتصب القدس وفلسطين والشام من الدولة الفاطمية الشيعية — التي كانت
 عقيدتها الباطنية بداية الانحطاط في التاريخ الإسلامي — كما يقول

جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤-١٣١٤هـ/١٨٣٨-١٨٩٧م)^(١) . ووجدنا
— على العكس من ذلك — دول الفروسية الإسلامية السنية — وخاصة
الأيوبيّة (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م) والمملوكيّة
(٦٥٨-٩٢٢هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) — هي التي جاهدت وحاربت حتى
استعادت الشرق وحررت مقدسات الإسلام من الصليبيين .

وإذا كان صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢-٥٨٩هـ/١١٣٧-١١٩٣م)
قد أصبح عنماً على الجهاد الإسلامي عبر تاريخ الإسلام ، فإنه هو القائد
السنّي ، الذي خلّص بلاد الإسلام من انحرفات الشيعة الإماميّة
الباطنية .. كما خلّص هذه البلاد من أشرس حملات الصليبيين .. بينما هو
مرفوض عند الشيعة — مع الأسف الشديد — . .

وكذلك صنعت جماهير أهل السنة ، وجيوشهم وقاداتهم ، عندما
حرروا ديار الإسلام من العروة النثرية السدسرة ، التي هددت الوجود
الإسلامي .. فالذين قهروا النصارى في " عين جالوت " (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)
هم أهل السنة .. والذين استعادوا بغداد من النصارى هم أهل السنة .. بينما
الخيانة التي فتحت أبواب بغداد أمام " هولاكو " (١٢١٧-١٢٦٥م) كانت
من الآخرين !! ..

إنّ .. فرصة الجهاد والفداء والاستشهاد الذي حرر الشرق من
القيهر الاستعماري القديم .. ففتح أبواب هذا الشرق أمام الإسلام .. إنما
يصب في تاريخ السنة ، الذي هو تاريخ جمهور الأمة .. وكذلك الحال

(١) (الأعمال الكاملة) ص ١٥٨-١٦١ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة
القاخرة ، سنة ١٩٦٨م .

مع رصد الجهاد والفداء والاستشهاد الذى حرر الشرق الإسلامى
— مرة ثانية — من الصليبيين الذين أرادوا اختطاف هذا الشرق من
الإسلام .

(٤)

وفى عصرنا الحديث .. وبعد أن استغل الاستعمار الغربى " التشيع
الصفوى الإيرانى " فى إضعاف الدولة العثمانية .. ثم أخذ فى احتلال
ولايات هذه الدولة الإسلامية الجامعة ، ولاية بعد ولاية ، حتى عمت بلوى
الاستعمار — الإنجليزى .. والفرنسى .. والإيطالى — أغلب بلاد الإسلام .
من الذى قاد حركات التحرر الوطنى التى دفنت هذه الإمبراطوريات
الاستعمارية فى أرض الشرق الإسلامى ؟؟

إنهم أهل السنة ، الذين يكتون ٩٠% من تعداد أمة الإسلام .. فهم
الذين حرروا الجزائر من القهر الاستعمارى الفرنسى ، وقنموا على مذبح
حريتها قرابة المليونين من الشهداء !! وهم الذين حرروا مصر من
الاستعمار الإنجليزى ، لتعود إلى قيادة حركات التحرر الوطنى والقومى
على امتداد ديار الإسلام فى آسيا وإفريقيا .

وهم الذين قادوا ويقودون حتى هذه اللحظات حركات التحرر الوطنى
والجهاد الإسلامى على أرض فلسطين .. والعراق .. والشيشان ..
وكشمير .. والفلبين .. والصومال .. والسودان .. وأفغانستان .. إلى آخر
ميادين الجهاد والتحرر الوطنى فى عالم الإسلام .

بينما رأينا - ونرى - قطاعات من الشيعة - فى العراق - يتحالفون مع أمريكا ضد المقاومة السنية للاحتلال ! .. ورأينا الشيع الإيراني يساعد أمريكا على احتلال أفغانستان - لأسباب مذهبية ضيقة الأفق - ويصنع ذات الخطيئة مع أمريكا ضد العراق ! ..

لذلك .. فإن الربط بين بطونة " حزب الله " على أرض لبنان وبين التشيع - كمذهب - هو خطأ فكري .. ووهم لا نصيب له من الصدق والموضوعية .. فينا - فى لبنان - شيعة أبطال ، يحاربون الصهيونية والاستعمار .. وهناك - فى العراق - شيعة ، فتحوا أبواب العراق أمام الغزاة الأمريكان ، وأمام الاختراق الصهيونى ، بل ودخلوا بغداد على ظهور الدبابات الأمريكية ! .. ويحكمون الآن من السفارة الأمريكية فى " المنطقة الخضراء " ! ..

بل إن فى إيران - التى تساعد " حزب الله " العربى - تشيعاً فارسياً مضطهد ، ليس فقط أهل السنة الإيرانيين ، وإنما مضطهد - كذلك - الشيعة العرب والتركمان والأكراد فى إيران ! ..

فالمذهب شىء .. والموقف الوطنى والجهادى شىء آخر .. والصمود والبطولات ليست حكراً على مذهب بعينه .. ولا دين بذاته .. ولا فلسفة دون غيرها من الفلسفات . كما يحاول بعض الخبثاء أن يوهموا بعض الذين لا دراية لهم بحقائق الفكر والمذاهب والتاريخ .

بل إن تاريخ الشيعة — كـمذهب — لم يعرف انخراطهم فى الثورات
ضد الحكام الظلمة وضد الاحتلال الأجنبى إلا فى القرن العشرين .. فلقد
ظلوا طوال تاريخهم — منذ الإمام جعفر الصادق
(٨٠-١٤٨هـ/٦٩٩-٧٦٥م) يعلقون الاشتغال بالسياسة والقيام بالثورة ..
وبناء الدولة على عودة الإمام الغائب (٢٥٦هـ/٨٧٠م) .

وكان أهل السنة هم الذين يقودون الثورات وحروب التحرر الوطنى
والقومى والجهاد الإسلامى طوال هذا التاريخ .

* وإذا كنا نمنح الإعجاب والتأييد — كل الإعجاب والتأييد —
للمقاومة الباسلة " لحزب الله " فى لبنان و " لحماس " و " الجهاد " فى
فلسطين .. فإننا نمنح الإعجاب للإسلام الذى يحرك الأمة — بالجهاد —
ويضعها إلى المقاومة .. وليس لمذهب من المذاهب التى يحتضنها
الإسلام .. وإلا لتغيرت مذهبنا ، بل ودياننا تبعاً للمذاهب والديانات التى
سادت وتسود فى المجتمعات التى قاومت وقاثلت الجباية والمستعمرين .
* ولو كان " المذهب " هو المعيار .. فهل نطلب من الشيعة المعجبين
ببطولات " حماس " فى فلسطين ، أن يتحولوا من التشيع إلى السنة .. كما
يفكر البعض فى التحول إلى الشيعة بسبب الإعجاب ببطولات المقاومة
الشيعة فى لبنان ؟؟

وأخيرا .. فإن هناك حفيظة اجتماعية هامة وخطرة ، تقول :

إن الوحدة المذهبية لأى مجتمع من المجتمعات هي مصدر هام من مصادر قوة هذا المجتمع وتماسك نسيجه الوطنى . تعينه على الصمود فى مواجهة التحديات .. الداخلية .. والخارجية .. لذلك ، فإن خلقة الوحدة المذهبية فى المجتمعات السنية يحولها إلى مجتمعات طائفية هشة لا تقوم لها ، ولا قدرة لها على الصمود فى وجه الغزاة .. ومن هنا فإن زرع خلايا شيعية فى المجتمعات السنية ، أو زرع خلايا سنية فى المجتمعات الشيعية ، هو عامل تفكيك ، يفتح الثغرات أمام الاجتياح الخارجى . ويخلق " الأوراق " التى يلعب بها الاستعمار .

لذلك ، فإن من حقنا جميعا — بل ومن واجبنا — أن نمنح كل التأييد والإعجاب والتعجيد لجميع حركات المقاومة الوطنية والقومية والإسلامية فى لبنان .. وفلسطين .. والعراق .. وأفغانستان .. والتشيشان .. وكشمير .. والصومال .. والفلبين .. الخ .. الخ . ولكن ، دون أن نقع فى الوهم الذى يزعم أصحابه أن المقاومة هي حكر على مذهب دون مذهب .. أو نقع فى خطيئة خلقة النسيج المذهبى والاجتماعى لمجتمعاتنا العربية والإسلامية .. فحقائق التاريخ .. وحقائق الواقع أكبر وأصدق من جميع الأوهام .

إن تحويل الشعب إلى طوائف هو هدف ثابت من أهداف الاستعمار . لأن هشاشة المجتمعات الطائفية تسهل اختراقها على الاستعمار .

وأريكا التى تحارب الشيعة فى لبنان .. هي التى تستعين بهم فى العراق .. وتدافع عنهم فى مصر !! .

وعندما جاء يونانيرت (١٧٦٩-١٨٢١م) ليحتل مصر سنة ١٧٩٨م
راهن على الأقباط في مصر .. وعلى اليهود في فلسطين .. دون أن يكون
أنى احترام لألقباط ولا لليهود .. لقد تحدث عن ما سماه " الأمة القبطية "
فقال : " سوف يسعدنى أن أهميها .. وأعيد لها الكرامة والحقوق التى
لا يمكن فصلها عن الإنسان " .

أما " الثمن " الذى أرائه من الأقباط ، فهو — بنص عبارته — :
" مطالبة أبناء الأمة القبطية بالكثير من الحماسة والإخلاص فى خدمة
الجمهورية الفرنسية " !!

ولنتبر — جميعا — كلمات يونانيرت عن الأقباط ، التى يقول فيها :
" إنهم أناس لنام فى البلاد ، ولكن يجب مراعاتهم لأنهم الوحيدون الذين
فى يدهم مجمل الإدارة للبلاد .. لقد حصنت منهم على سجلات هائلة حول
قيمة الضرائب المفروضة على مصر " !! (١) .

ألا قاتل الله الطائفية .. والنعب بأوراقها .. ولعن الله الخبثاء الذين
يسلكون سبيل المذهبية لخطلة النسيج الاجتماعى فى مجتمعات الإسلام ،
سواء أكان هذا النسيج منيا — فى المجتمعات المنية — أو متعيا — فى
المجتمعات الشيعة — ..

وعلى من يفكر فى أن يتحول من السنة إلى الشيعة — فى مجتمع
بنى — أن يدرك أنه بذلك التحول سيعزل نفسه عن محيطه ، ويحول

(١) صحيفة (وطنى) وثائق نشرها عادل جدى — تحت عنوان " المخططات الصهيونية "

فى ٢٠٠٦/٧/٢م .

جهوده ضد ذلك المحيط ! .. وكذلك الحال مع الشيعة الذي يفكر في التحول إلى السنة - في محيط شيعي - ..
فنحن جميعا مسلمون .. علينا أن نوجه كل طاقاتنا لتحرير بلادنا
عن الفهر الاستعماري والاستبداد الداخلي .. لا أن نغرق طاقاتنا في العبث
المذهبي ، الذي لن يفيد منه سوى الأعداء !

(٧)

لكن .. إذا كان هذا هو منطق العقل الرشيد .. فليس كل ما يتمنسى
المرء يفكره ! لقد تحدثت إلى أحد فضلاء علماء الشيعة .. عندما التقينا
بالحزب الأولي ثمانينيات القرن العاشر - في "ملتقى الفكر الإسلامي"
وقلت له :

.. لقد لاحظت - وأنا أذرع إصدارات الكتب الشيعة - كثرة مبالغها
فيها في الكتب التي تهجم "الوهابية" .. مع أن تعداد الوهابيين لا يعدو
بضعة ملايين ، في أمة يقارب تعدادها من المليار ونصف المليار .. فلم
هذا الجهد الكبير الذي تبذلونه في هذا الميدان ؟!

فكان جوابه :

.. إنهم يكفروننا ..

فقلت له :

.. وماذا في هذا ؟! .. إنهم - أو بعضهم - يكفروننا - نحن
الأخيرة والماتريدية ... ونحن نملك أكثر من ٩٩% من أهل السنة .. ومع
ذلك لا نلقى إليهم بالا ! ..

ومنا ذلك التاريخ - وعبر اهتمامي بالمذاهب الإسلامية - أدركت
 أن الشيعة والوهابية يتصرفان - كليهما - لا بعقيدة الأقليّة "و" نزعاً
 الفرقة الناجية " .. وربما يعقلية "الدين المستقل" ، الذي يكفر أهله كل
 الآخرين 1 .

ولهذه الحقيقة ، نجد احتقاليهما الشديد وسعيهما الحثيث "للتحويل
 المذهبي" وكأنّه "هداية إلى الإسلام" ! .. فالوهابيون يفرحون عندما
 يتحدثون عن حصادهم من "الشيعة الذين آمنوا" ، والشيعة قد جعلوا لها
 من فنون تكييفهم للحديث عن الذين تحولوا من "السنة" إلى "الشيعة"
 حتى أصدروا - في هذا الفن - العديد من الكتب .. ومنها كتاب
 (المتحولون) - الذي بلغت أجزاءه سبعة مجلدات !!

وإذا كانت الأوهام درجات ومستويات .. فيها البسيط .. والمتوسط
 .. والثقيل .. فإن ذروة الأوهام الشيعة قد تمثلت في ذلك الذي ادعاه
 "الكذبة - المرتزقة" من تحول عدد من أئمة علماء أهل السنة والجماعة
 وأعلامهم إلى المذهب الشيعي .. لقد ادعوا ذلك على شيخ الأزهر ، ومفتي
 المالكية الشيخ سليم البشري (١٢٤٨-١٣٣٥هـ/ ١٨٦٧-١٩١٧م) ..
 وادعوه على الإمام الأكبر الشيخ محمود سليموت
 (١٣٠١-١٣٨٣هـ/ ١٨٩٣-١٩٦٣م) .. بل وبلغ بهم "لؤهم - الكاذب"
 إلى حد ادعاء ذلك على الأئمة الإمام الشيخ محمد عبده
 (١٢٦٦-١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩-١٩٠٥م) !! ..

وإذا كان هذا " الفن " من فنون " الأوهام الكاذبة .. والكاذب الوهمية " يحتاج في الرد عليه وتقنيده إلى دراسة خاصة .. فإننا نشير هنا - مجرد إشارات - إلى مكانة هذه الدعوى عن تحول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى التشيع .. مكانتها من الحقائق البديهية والصلبية ، التي تعلت وتجلت - ولا تزال متمثلة ومنجسدة - في حياة الأستاذ الإمام وفي فكره - المجموع والمحقق في (أعماله الكاملة) :

١ - لقد أعلن الشيخ محمد عبده عن مذهبه ومذهب أستاذه جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤-١٣١٤هـ/١٨٣٨-١٨٩٧م) ومذهب جمعية (العروة الوثقى) - التي رأسها الأفغاني .. وكان محمد عبده نائب رئيسها - أعلن عن مذهبه فقال - في رسالة كتبها إلى أحد أعضاء هذه الجمعية - " .. ولنعلم - سيدي - أننا من أشعريين أو ماتريديين ، وأننا في أصل العبادات دائرون بين المذاهب الأربعة ، فسأ المسلكي والشافعي والحنبلي والحنفي .. " (١) .

فهل يجوز أن يقال عن صاحب هذا " الإعلان " إنه تشيعي ؟ ..

٢ - وقال الإمام محمد عبده عن مذهب أستاذه جمال الدين الأفغاني وهو يترجم له في المقدمة التي كتبها لرسالة (الرد على الدهريين) - : إن مذهبه " حنفي " كأهل أفغانستان السنة - وأنه كان من أشد الناس محافظة على مذهب إمامه أبي حنيفة النعمان (٨٠-١٥٠هـ/٦٩٩-٧٦٧م) .. وينص عبارة الشيخ محمد عبده عن مذهب الأفغاني :

(١) (الأعمال الكاملة) ج ٩ ، ص ٦٩٧ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م .

” أما مذهب الرجل فحنيفى حنفى . وهو وإن لم يكن قسّى عقيدته مقتداً ، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة ، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية . رضى الله عنهم — وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض فى مذهبهِ ، وعرف بذلك بين معاصريه فى مصر أيام إقامته بها ، ولا يأتى من الأعمال إلا ما يحل فى مذهب إمامه — (أبى حنيفة) — . فهو أشد من رأيت فى المحافظة على أصول مذهبهِ وفروعه .. “ (١) .

٢ — وإذا كانت نقطة انطلاق التشيع ، ومخيار افتراقهِ عن مذهب أهل السنة والجماعة ، هو رفض الشيعة إقامة الدولة والخلافة والإمامة على “ الشورى ” والاختيار .. وسلطة الأمة “ ، وإفادتها — بدلاً من ذلك — على “ النص والرؤية والتعيين ” من السماء والوحي .. وبعبارة العلامة السيد محمد باقر الصدر :

” فإن النبى لم يمارس عملية التوعية على نظام الشورى وتفصيله التشريعية أو مفاهيمه الفكرية ، ولم ي طرح الشورى كنظام للأمة ، ولكنه أعد الإمام علياً للمرجعية وزعماء التجريبية بعده ، وأودعه سنته كاملة ، وعلمه ألف باب من العلم .. “ (٢) .

إذا كان هذا هو رفض الشيعة لإقامة الدولة الإسلامية على نظام الشورى ، فإن الأعمال الفكرية للإمام محمد عبده مليئة بالحديث

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ .

(٢) محمد باقر الصدر (التشيع ظاهرة طبيعية فى إطار الدعوة الإسلامية) ، ص ٤٠ ، ٤٧ ، ٥٦ . تقديم وتعليق السيد طالب الحسينى القرعى . طبعة القاهرة سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

عن الثوري وسنطة الأمة طريقا وحيدا لإقامة الدولة والخلافة والإمامية
في الإسلام .. حتى لقد خصص لهذا السبب العديد من الفصول
والمقالات (١) .

فهل يكون شيئا من يفرق ويخالف ويناقض نقطة الإنطلاق الشيعية
في عقيدة الإمامة (٢) .

٤ - وإذا كانت الشيعة تدعي أن الرسول ﷺ قد اختار معه في
"المباهلة" مع نصاري نجران سنة ١٠ هـ علي بن أبي طالب .. وزوجه
فاطمة .. وابنيهما الحسن والحسين .. ويذكرون ذلك في تفسيرهم قول
الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ
النَّعْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا
وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣) .

فإن الإمام محمد عبده يرفض هذه الدعوى الشيعية .. ويرفض كل
الروايات التي تؤيدها .. ويقول - في تفسير هذه الآية - :

"الروايات متفقة على أن النبي ﷺ اختار للمباهلة عليا وفاطمة
وولديهما .

ويحملون كلمة « نساءنا » علي فاطمة ، وكلمة « أنفسنا » علي
علي فقط .

ومصادر هذه الروايات الشيعية ، ومقصدهم معروف ، وقد اجتهدوا
في ترويجها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنة .

(١) انظر : علي سبيل المثال - ج ١ ، ص ٣٨٩-٣٩٩ من أعماله الكاملة .

(٢) آل عمران : ٦١ .

ولكن واضعها لم يحسنوا تطبيقها على الآية ، فإن كلمة « نساءنا » لا يقولها العربي ويريد بها بنته ، لا سيما إذا كان له أزواج ، ولا يفهم هذا من لغتهم ، وأبعد من ذلك أن يراد « بأنفسنا » على - عليه الرضوان - وهذا الإشكال وارد على قول الشيعة ومن شايعهم .. (١) .
فهو يكون شيعيا من يتهم الشيعة بالوضع - أى الكذب المتعمد - وبزويج هذا الكذب ونسبه فى كتب التفسير .. ثم ينقض - بالنسبة - هذه الروايات التى وضعوها ؟! ..

٥ - وإذا كان عمدة عقائد الشيعة فى الإمامة هى عصمة الأئمة .. فإن الإمام محمد عبده يرفض هذه العقيدة الشيعية من أساسها .. ويرفض تفسير الشيعة لـ « أولى الأمر » فى الآية القرآنية : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (٢) . بأنهم « أئمتهم المعصومون » .. يرفض الإمام محمد عبده هذه العقيدة المركزية والمعارية فى المذهب الشيعى .. ويقول - فى تفسيره لهذه الآية - :
« وقالت الشيعة إنهم الأئمة المعصومون . وهذا مردود ، إذ لا دليل على هذه العصمة ، ولو أريد ذلك لصرحت الآية » .

وبعد رفضه لهذه العقيدة الشيعية المحورية ، يقدم تفسيره لـ (أولى الأمر) ، فيقول : « إن المراد بأولى الأمر جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين ، وهم الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند ،

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٥ ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) النساء : ٥٩ .

وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة " .

وهو بهذا التصير - لأولى الأمر - يجعل السلطة في الأئمة عن طريق ممثلها ، وليس في الأئمة المعصومين - كما هي عقيدة الشيعة في الإمامة والسلطة والدولة - .

ثم يضرب - الإمام محمد عبده - مثلاً على المؤسسات الثورية الإسلامية التي جسدتها سلطة (أولى الأمر) في عهد الخلافة الراشدة - خلافة الفاروق عمر بن الخطاب - الذي يكفره الشيعة ويلعنونه! - فيقول : " .. وذلك كالديوان الذي أنشأه عمر باستشارة أهل الرأي من الصحابة - رضي الله عنهم - وغيره من المصالح التي أحدثها - (عمر) - برأى أولى الأمر من الصحابة ، ولم تكن في زمن النبي ﷺ ولم يعترض أحد من علمائهم على ذلك .. " (١) .

فيل هذا الفكر الواضح والحاسم ، الذي يرفض عقيدة الشيعة في عصمة الأئمة " ويحاز إلى الثوري ومؤسساتها كمصدر للسلطة - وليس إلى السلطان الإلهي ملائمة المعصومين .. كما ينحاز إلى نسيج عمر بن الخطاب والصحابة - الذين يكفرهم الشيعة ويلعنونهم - في سياسة الدولة .. ويترضى عن هؤلاء الصحابة ١٢٢ ..

هل يمكن أن يكون هذا الفكر الواضح والحاسم صادراً من شيعي ١٢٢ .

(١) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ٢٢٩ .

٦ - وانطلاقاً من وسطية أهل السنة والجماعة ، يرفض الإمام محمد بن عبد الغلو الشيعي .. ويقول : " وغلا بعض الشيعة فرقموا عليهما أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية أو ما يقرب منه ، وتبع ذلك خلاف في كثير من العقائد .. " (١) .

فهل إطلاق لفظ " الظن " على مذهب الشيعة في الإسلام ، وفي حق الأئمة من بعده ، يمكن أن يصدر عن شيعي .. تحول من السنة إلى الشيعة ؟؟ ..

لقد قال الشيعة الإثنى عشرية في علي بن أبي طالب :

" كان - عليه السلام - محدثاً .. يحدثه الملك .. " (٢) .

وقالوا عن كل إمام من أئمتهم الإثني عشر :

" إن قوة الإلهام عند الإمام ، التي تسمى بالقوة القدسية ، تبلغ تكمال في أعلى درجاته .. وتسمى توجسه إلى شيء من الأشياء وأراد معرفته استطاع علمه بذلك القوة القدسية الإلهامية ، بلا توقف ، ولا ترتيب مقدمات ولا تأقن معلم .. والأئمة لم يستربوا على أحد ، ولم يتعلموا على يد معلم ، من مبدأ تلقونهم إلى سنن الرشيد ، حتى القراءة والكتابة ، ولم يثبت عن أحدهم أنه دخل الكتاتيب أو تعلم على يد أستاذ في شيء من الأشياء ، مع ما لهم من منزلة عظيمة لا تجاري .. وما سئلوا عن شيء من الأشياء إلا أجابوا عليه في وقته ، ولم تسر

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٧٧ .

(٢) الكليني (الكافي) ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

على أسنتهم كلمة (لا أدرى) ولا تأجيل الجواب إلى المراجعة أو التأمل
ونحو ذلك .. (١)

فيل رفض هذه العقيدة الشيعية في الأمة ، ووصفها ' بانفلو ' بمكس
أن يصدر عن فتحوّل من السنة إلى الشيعة (٢) ..

٧ - وإذا كان الشيعة قد جعلوا للإمام سلطة دينية كبرى ..
فهو المعصوم .. والمنصوص عليه .. والمعين من السماء
- بواسطة الوحي - .. وهو مصدر الشريعة .. والحافظ لها .. والقيّم
عليها - بل والقيّم على القرآن - .. والذي لا يجوز عليه الخطأ ، بينما
يجوز الخطأ والضلال على الأمة جمعاء .

ولقد قادوا الإمامة على النبوة .. بل ورفعوها فوق النبوة ، فقالوا :
' إن دفع الإمامة كفر ، كما أن دفع النبوة كفر .. ولقد استازلت
الإمامة على النبوة لأنها استمرت بأداء رسالة بعد انتهاء دور النبوة ..
فالنبوة لطف خاص والإمامة لطف عام ' (٣) .

بل وجعلوا لهذا الإمام خلافة تكوينية تخضع له لا إلهيا وسيطرتها
جميع ذرات هذا الكون ! - وليس فقط الأمة والدولة والاعتصام !
- ورفعوا مقام الإمام فوق مقام الرسول ! .. وبعبارة الإمام الخميني :

(١) محمد رضا المظفر (عقائد الإمامية) ، ص ٧٦-٧٩ ، طبعة التجف ، دار الزمان

(٢) (الكافي) ج ١ ، ص ١٦٠ ، ١٦١ ، والفيلوسي (تلخيص الشافي) ج ١ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

طبعة التجف سنة ١٣٨٤ هـ -

١ .. فإن للإمام مقاما محمودا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخصّص لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون . وإن من ضرورات مذهبنا أن لا نأتمنّا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل .

" وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنوارا ، فجعلهم الله بعرشه محققين ، وجعل لهم من المنزلة والرفي ما لا يعلمه إلا الله " (١) .

بل ويجعلون هذه السلطة الدينية الكهنوتية — التي تفوقت على السلطة الحزبية للبابوات — لفقيه النائب عن الإمام — في عصر الغيبة للإمام الغائب — :

وذلك " لأن الفقيه هو وصي الرسول من بعد الإمام ، والحجة على الناس كما كان الرسول حجة عليهم . وفي عصر الغيبة يكون — (الفقيه النائب) — هو إمام المسلمين دون سواه .. وله كل سلطات الإمام ، الذي هو حجة الله .. الذي عينه الله .. فأشبه جعل الرسول وليا للمؤمنين جميعا ، ومن عبده كان الإمام وليا .. ونفس هذه الولاية والحاكمية موجودة لدى الفقيه .. فالقيم على الشعب بأسره لا تختلف مهمته عن القيم على الصغار إلا من ناحية الكمية .. " (٢) .

إذا كانت هذه هي السلطة الدينية الكهنوتية للإمام عند الشيعة .. فكيف يكون الشيخ محمد عبده شيعيا ، وهو الذي نقض هذا البناء الكهنوتي

(١) الحسيني (الحكومة الإسلامية) ، ص ٥٢ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٧ ، ٤٩-٥١ .

من أسسه ١٩ .. بل واعتبر نقض هذا البناء واحداً من أجل أصول الإسلام ١٩ .. إنه هو القائل :

« أصل من أصول الإسلام — وما أجله من أصل — قلب السلطة الدينية والإيمان عليها من أساسها ، هدم الإسلام بناء تلك السلطة ، ومحا أثرها . حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم .. إن الرسول كان مبلغاً ومذكراً ، لا مهيمناً ولا مسيطراً .. والمسلمون يتناصحون ، وهم يقيمون أمة تدعو إلى الخير ، وهم المراقبون عليها ، وتلك الأمة ليس لها عليهم إلا الدعوة والتذكير والإنذار .. فليس في الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه .. والله لم يجعل للخليفة ولا للقاضي ولا للمفتي ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام .. وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء هي سلطة مدنية .. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه : أو ينادعه في طريق نظره .. فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر ، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها ألقاع أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم .. وليس لمسلم مهما علا كعبه في الإسلام على آخر ، مهما انحطت منزلته فيه ، إلا حق النصيحة والإرشاد » (١) .

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ، ج ٣ ، ص ٢٨٥-٢٨٩ .. طبعة بيروت ،

سنة ١٩٧٢ م .

قبل يمكن أن يكون صاحب هذا الفكر والموقف ، المتناقض والسهام
لعقيدة الشيعة في سلطات الإمام وسلطته ، شعبياً .. تحول من مذهب أهل
السنة والجماعة إلى مذهب الشيعة الاثنى عشرية ١٢
وكيف جاز ذلك " الوهم - الكاذب " على من له أدنى ذريرة بفكر
الأستاذ الإمام ١٢ ..

٨ - وأخيراً .. فإن الضربة القاصمة والفاضية في هذا التهام
- دعوى تحول محمد عبده عن السنة إلى الشيعة - تأتي صريحة
وحلقة .. وعلى لسان محمد عبده نفسه .. ورواية تميزه ومزيده
وموضعه سنره الإمام السيد محمد رشيد رضا
(١٢٨٢-١٣٥٤هـ/١٨٦٥-١٩٣٥م) .. روايته لرأى أستاذه محمد عبده
في مذهب الشيعة .. والذي بلغ من شدته الحد الذي جعل محمد عبده يطلب
من رشيد رضا عدم إذاعته في حياته !.. بل وجعل رشيد رضا يخرج من
إذاعته حتى بعد وفاة الأستاذ الإمام !..

ولنقرأ ما سجله الشيخ رشيد رضا في (تاريخ الأستاذ الإمام) عن هذا
الرأى ، لنعلم حقيقة موقف محمد عبده من مذهب الشيعة ..
يحكى الشيخ رشيد - في الحوار الذي دار بينه وبين الشيخ محمد
عبده حول البهائية .. ودعوى داعيتهم عباس ميرزا فضل الله
(١٢٦٠-١٣٣٩هـ/١٨٤٤-١٩٢١م) - أنهم - (البهائية) - ما قاموا
إلا " لإصلاح مذهب الشيعة وتقريبه من مذهب أهل السنة " .. ثم يقول
الشيخ رشيد :

.. ونكر - (أن الأستاذ الإمام) - ما لم يأتني لي بنقله عنه فسي حياته ..

وأرى الحكمة في ترك التصريح به بعد وفاته .

وإنما أقول : إن حكمه عليهم - (الشيعة) - أشد من حكم شيخ الإسلام ابن تيمية .

وقال - (أى محمد عبده) : " هم أحوج الفرق إلى الإصلاح .. " (١) .
وإذا كان إخواننا الشيعة - علماء وعامة - يعرفون جيداً حكم شيخ الإسلام ابن تيمية عليهم - وهو ما لا نريد أن نذكره هنا - .. وإذا كان حكم الإمام محمد عبده على مذهبهم أشد من حكم ابن تيمية .. فكيف يليق بهم أن يفتحوا أبوابهم " للكذبة - المرتقة " ليعزفوا عليهم موقف محمد عبده من الشيعة والتشيع . فيأخون تحولته من السنة إلى الشيعة ، لا دليل .. ولا قرينة .. وإنما بحكايات خرافية هي أشبه ما تكون بحكايات المعجزة لصغار الأطفال ! .. ثم يكتبون ذلك ويطبعونه وينشرونه فيما صنعوا عن (المحتولين) ١٩ ..

إننا إذ نكتفي - فى هذا المقام - بهذا الحديث عن حقيقة موقف الإمام محمد عبده من المذهب الشيعى .. لا نريد مناقشة رأيه .. وإنما نريد

(١) رشت رضا (تاريخ الأستاذ الإمام) ، ج ١ ، ص ٩٣٤ . طبعة مطبعة المنار - القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م ، وانظر كذلك (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٣ ، ص ٥٦٠ ، ٥٦١ .

تبيان هذا الزيف الذي يزيغه البعض على العديد من رموز علماء أهل السنة .. ونقول لهم :

إن القضاء الشيعي على العلماء والفلاسفة والفقهاء .. فعلى العقلاء من هؤلاء العلماء الأجلاء أن يتخلصوا من " عقدة الأقلية " ، الباحثة بأي أسلوب .. حتى ولو كان المكيافيلية عن تكثير الأعداء .. وعن شهادة الآخرين للمذهب — ولو بالزور — .. ذلك لأن انتزاع " ألغام التكفير " هو السبيل لبناء وحدة الأمة .. وبهذه الوحدة يتخلص الجميع من هذه " العقدة " ، التي تلجئ البعض إلى ما لا يليق ! ..

والآن .. ما العمل؟؟

إننا ندعو الآن أن يتنادى حكماء المذاهب الإسلامية - وخاصة من السنة .. والشيعية .. والسلفية والصوفية - إلى حوار حكماء ، تعقد جلساته بعيداً عن العامة والإعلام ، للاتفاق على أمرين : أولهما : عاجل .. وهو إصدار فتوى جماعية - سنية .. شيعية .. صوفية .. سلفية - بتحريم وضع تهمة التكفير وما يتصل به لأي من مذاهب الأمة ، التي يشهد أهلها أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. تحريم وضع هذه الاتهامات على مواقع الإنترنت : ه غيرها من وسائل النشر والإعلام الجماهيرية ..

وثانيهما : العمل على تهذيب كتب التراث - لدى هذه المذاهب جميعها - وذلك بتطهيرها من كل أحكام التكفير لمن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. ونذكركم بهذه الأخطام الموقوتة والمتفجرة من ثقافة الأمة .. الأمر الذي يدونه سيفل الحديث عن وحدة الأمة ضرباً من التعيث ، بل - وفي بعض الأحيان - لوئنا من ألوان النفاق !

لكن .. يبقى السؤال الأهم .. وهو :

— هل هناك إمكانية حقيقية لتهديب هذا التراث الضخم ، وتفسيره
من ألغام التكفير ؟ 19

— إن جوابنا هو : نعم ، إذ نحن بدأنا حوار الحكماء هذا بعدد —
ولو قليل — من ذوي الحكمة والإخلاص والوعي بالمخاطر التي تليها
وجود الأمة ، والتي تتوسل بالصراعات المذهبية لتحقيق مقاصد الأعداء ..
لقد سبق لعدد كبير من علماء الشيعة الإنسي عصرية أن راجعوا
وانتقدوا الروايات التي استلأ بها ترانيم ، والتي تتحدث عن تحريف القرآن
الكريم ، وعن وجود مصحف خاص بالشيعة ، يسمى " مصحف علي "
أو " مصحف فاطمة " .

راجعوا هذه الروايات .. وناقضوها .. وانتقدوا المؤلفات التراثية
الشيعة التي انطلقت منها — من مثل كتاب " تميزنا حصين السورى "
[فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب] !! :

ولقد قمنا في هذه المراجعة النقدية عندما من المعاداة اليأس في
منهج المراجعة لهذا التراث ، ومنها :

1- أن أغلب هذه المرويات التي مزقت وتمزق وحدة الأمة قد
جمعها وإسلمها وثونها " الإخباريون " ، الذين كانت كل مهمتهم جمع
وتدوين ما يسمعون من المرويات دونما نقد أو مقارنة أو دراسة أو فقه
أو اجتهاد .. وهذا المنهج " الإخباري " قد مثل مرحلة في التاريخ الفكري
لجميع المذاهب في تاريخ الإسلام الحضاري ، الأمر الذي يوجب على أهل
" الدراية " و " الاجتهاد " إعادة النظر والفحص لهذه المرويات .

٢- إنه لا فائدة ولا عصمة لكتب التراث التي جمعت رويات الإخباريين " هذه .. وليس فيها ما يعلو على المراجعة ، سواء كانت الرواية والرجال .. أو تمتع والدراية لمضامين ومعقولة هذه المرويات .

وفي هذا الإطار رأينا علماء الشيعة العشرية يتحدثون عن المصدر الأول لأحاديث عندهم - كتاب [الكافي من الأصول] للكليني - وهو المقلد لصحيح البخاري عند أهل السنة - فيقولون عن هذا الكتاب - الذي شاعت فيه روايات التكفير .. وروايات تحريف القرآن :

" .. وأما بالنسبة إلى [الكافي] - الذي ألف خلال عشرين سنة - فنحن لا نقول بصحة كل الروايات التي نقلها الكليني فيه ، لأن قسما منها يعد من حيث السند ضعيفا أو مراسلا أو غير ذلك ، وقسما آخر منها لا يوافق القرآن ، ويمكن أن يחדش فيه من حيث المتن .

ويقول السيد هاشم معروف الحسيني - في كتابة [دراسات في الحديث والمحدثين - ص ١٣٢ ، ١٣٤] - : " إن المتقدمين لم يجمعوا على الاعتماد على جميع مروياته - [الكافي] - جملة وتفصيلا " .

ويقول أيضا : " إن أحاديث الكافي ، التي بلغت ستة عشر ألف حديث ومائة .. وتسعة وتسعين - ١٦١٩٩ - حديثا ، وهي :

* الصحيح منها : خمسة آلاف واثنين وسبعين حديثا * ٥٠٧٢ .

" والحسن : مائة وأربعة وأربعين حديثا " ١٤٤ .

* والموثق : ألفا ومائة وثمانية وعشرين حديثا * ١١٢٨ .

* والقوي : ثلاثمائة وحديثين " ٣٠٢ .

* والضعيف : تسعة آلاف وأربعمائة وثمانين حديثاً " ٩٤٨٠ .

هذا من حيث السند فقط " (١) .

فإذا كان هذا هو موقف الاجتهاد الشيعي من روايات الإخباريين ، التي جاءت في أهم مصادرهم الحديثية — [الكافي] فإننا نكون بإزاء إمكانية حقيقية ، بل وفرصة ذهبية ، لمراجعة كل التراث المذهبي لدى مختلف الفرق والمذاهب والتيارات الفكرية ، لنزع " ألغام التكفير " من هذا التراث ، وتهديب كتبه ، وتقديمها في الصورة التي تجعل منها عاملاً من عوامل وحدة الأمة ، بدلاً من أن تكون عامل تمزيق وتفريق ..

نقد راجع الشيعة الإثني عشرية — بهذا المنهج — كل مروياتهم التي تحدثت عن تحريف القرآن الكريم — بما فيها مرويات [الكافي] — وقدموا كتاب [أكتوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] - الذي صدرت طبعته الرسمية في طهران ١٩٨٥ م .. والذي قدمنا له واحداً طبعته بالقاهرة ٢٠٠٦ م .

ولذلك ، فإننا أمام إمكانية حقيقية وفرصة ذهبية لحوار حكماء ، يجمع صفوة من عقلاء علماء المذاهب الإسلامية ، الذين يفتقرون واقعنا المعاصر مع فقههم للأحكام .. والذين يعيشون ويرابطون على تصور المواجهة بين الأمة وبين " الصليبية " الصهيونية " ، ويدركون أثر الوحدة الإسلامية في الانتصار على التحديات الشرسة التي تواجه الإسلام

(١) الشيخ رسول جعفریان [أكتوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] ص ٧٩ ، ٨٠ .

تقديم د - محمد عسارة : طبعة مكتبة النابذة — القاهرة سنة ٢٠٠٦ .

والمسلمين ، ولا يقدمون الارتزاق من التعصب المذهبي على المصالح العليا للأمة الإسلامية ..

إن حواراً علمياً .. صبوراً يقوم به نفر من هؤلاء العلماء الحكماء ، لإنجاز هذا المقصد العظيم — تطهير التراث المذهبي من تهم التكفير وأحكامه لمن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله — فهو الفريضة الفكرية الأولى ، التي نقودنا إلى فريضة وحدة أمة الإسلام .

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ..

* * *

إن علينا أن نتعلم المنهج القرآني الذي لا يعم ولا يطلق الأحكام على الآخرين .. منهج : « ليسوا بسواء » ^(١) .

* فالشيعة ليسوا سواء .

* وأهل السنة ليسوا سواء .

* والصوفية ليسوا سواء .

* والسلفية ليسوا سواء .

فعلينا أن نتوكل على الله ، ونختار المؤسسة العلمية المؤهلة بالدعوة والشرعية لهذا الحوار .. الذي نعلق عليه وعلى تجاهه الآمال الكبار إن شاء الله ..

* * *

(١) أن عفران : ١٨٣ .

وإذا كنا قد اضطررنا - في هذه الدراسة - إلى تقديم نماذج من " الفواحي الفكرية " التي تتقاذفها مذاهب وتيارات فكرية عبر وسائل الاتصال الحديثة .. فإن الهدف من ذلك إنما كان (تشخيص الداء) طلباً (للدواء) .. وليس إشاعة جرائم هذا الداء بين العامة والجمهور .. ذلك أن تقنيات وسائل الاتصال الحديثة يجب أن توضع - دائماً وأبداً - في خدمة وحدة الأمة ، بدلاً من تسخيرها - كما هو الحال الآن .. في إشاعة " الفواحي الفكرية " بين عامة المسلمين وغير المسلمين .

وصدق الله العظيم : ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ (١) . والله من وراء القصد .. منه نستمد العون والسداد والتوفيق ..

(١) الأنفال : ٦٣ .

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
كلمات	٥
١ - تمهيد	٩
٢ - حتى يكون التقريب حقيقياً	١٦
٣ - مقال في التحذير من التكفير	٢٩
٤ - مستويات الخطاب .. ومستويات المخاطبين	٤٧
٥ - ثورة الإعلام المعاصر .. وإشاعة فتنة التكفير بين الجماهير ..	٦١
٦ - التكفير الصوفي للوهابية	٦٦
٧ - التكفير الوهابي للشيعة .. والصوفية .. والأشعرية ..	٧٠
٨ - النزعة التكفيرية عند الشيعة	٧٣
٩ حقائق .. وأوهام	٨٨
١٠ - والآن .. ما العمل ؟!	١١٣

طبع

بمطبعة وزارة الأوقاف

يسر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أن يزود المكتبة الإسلامية والقارية المسلم في جميع أنحاء العالم الإسلامي بأهم الكتب التي صدرت عن المجلس ومنها :

أهم كتب التراث الإسلامي

سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - الأجزاء من ١ إلى ١٢	مختصر سيرة ابن هشام - الأجزاء من ١ إلى ٢
سقوط السيرة النبوية لأين كثير - الأجزاء من ١ إلى ٤	إخلاص القلوب - الأجزاء من ١ إلى ٤
نصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز - الأجزاء من ١ إلى ٦	نسخ المصاحف - الأجزاء من ١ إلى ٦

سلسلة الموسوعات الإسلامية المتخصصة

الموسوعة القرآنية	موسوعة علوم الحديث	موسوعة أعلام الفكر الإسلامي
موسوعة الحضارة الإسلامية	موسوعة التشريع الإسلامي	

المصحف الشريف

المصحف الشريف طباعة ٢ لون نسخة ذهبية - المصحف العلم ٢٨ شريطاً للشيخ محمود خليل الحصري
المختب في تفسير القرآن الكريم باللغة العربية - المصحف المرتل ٢٢ شريطاً للشيخ محمود خليل الحصري
مجلة فاخر طباعة أوفست ٢ لون ولترجمة - المصحف الجود ١٠ شريطاً للقراء عبد الباقط عبد الصمد
واللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية - معطى يسمايل محمود على البنا محمود خليل الحصري
والروسية والألمانية والأندونيسية .

وهذه الكتب لكبار العلماء وكبار المحققين في العالم الإسلامي :

موسوعة الفقه الإسلامي - الأجزاء من ١ إلى ٢٨	حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين
الفتاوى الإسلامية مجلدات الأجزاء من ١ إلى ٢٠	الأبحاث الفلسفية مع تعليق كبار العلماء
	ينابيع الأحكام في معرفة الحلال والحرام

مراكز البيع

٢ شارع الأمير فهد في ميدان التحرير	القاهرة ٤ شارع البنايات - جاردن سيتي
٧٦ شارع الجمهورية (ترافق القرآن الكريم)	مكتبة مسجد النور بالعجيزة
الاسكندرية فرع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٤٤ شارع سعد زغلول	

مواعيد العمل من ٩ صباحاً إلى ٤ ظهراً

وتتبعاً إلى القاريه المسلم ومشاركة في تزويد المكتبات الإسلامية بالمطبوعات التي صدرت عن المجلس . تشاع هذه المطبوعات للجمهور بصغير التكلفة المعبية ، مع إجراء نسبة خصم البيع بالتلف إذ أراد عدد النسخ المتأخره حتى يضمن للشباب الواحد إما بالنسخة لتهدات الحكومية وتؤسسها العامة ويمكن البيع بالأجل على أقساط شهرية أو على أمد زائد على أسعار التكلفة الفعلية